

زريد



ذ جمال الحنصالي

زريد

رواية



دار نشر المعرفة

زريد

ذ جمال الحنصالي

دار نشر المعرفة

10، شارع الفضيلة، الحي الصناعي، يعقوب المنصور، الرباط - المغرب

الهاتف : 037 79 69 14 / 05 37 79 57 02 - الفاكس : 05 37 79 03 43

المطبعة : مطبعة المعارف الجديدة - الرباط

طبعة 2014

رقم الإيداع القانوني :

ردمك :

© جميع الحقوق محفوظة

إهداء خاص

عملي المتواضع هذا أهديه لروح جدتي فاطمة التي
وافتها المنية يوم الأربعاء 17 يوليوز 2013، تغمدها الله
بواسع رحمته، وأسكنها فسيح جناته..
إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنسانة تستحق..

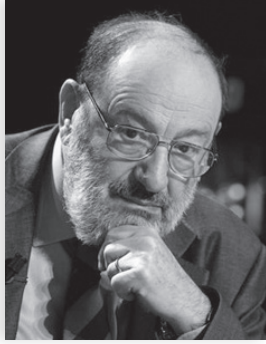
لن أجد حرجا في إهداء هذه المحاولة الأولى في مشواري
كروائي يشق الطريق على مهل..

سوى إلى زوجتي الغالية لبنى !

إليكِ أهدي عملي المتواضع يا من تفتت شقائق نعمانها
على أديم إبداعاتي وأسبل زرع النجاح في مروج حياتي..

فقط ..

لأنكٍ معي.



"مهمة الرواية هي التعليم عن طريق التسلية، وما تعلمه إيانا

هو أن نتعرف على مكائد الحياة."

أمبرتو إيكو
فيلسوف وروائي
من إيطاليا

من شجعني على كتابة الرواية؟

إنه محمود الريماوي

روائي وكاتب من الأردن

قال لي يوما: رأيي أخي جمال أنك كاتب موهوب تتمتع بأسلوب شائق يميل الى السخرية، وهذه ميزة قلما نجدها في إبداعنا العربي.

ألاحظ أن قصصك متعددة الشخصيات، ليس هناك بطل رئيسي وآخرون ثانويون.. كلهم رئيسون، وهذا يجعل سردك أقرب الى السرد الروائي العريض والأفقي، لا العمودي والرأسي.

ربما لا يطول الأمد قبل انتقالك الى فن الرواية.

Monday, March 26, 2012

عندما تولد الرواية البكر ناضجة ..

كم هو جميل أن تواكب عملا روائيا وهو يتأسس وينمو.. وأن تعيش فرح الروائي وهو يخوض غمار الكتابة الروائية الأولى، ويبني عوالمه السردية بتأن يكشف عن كاتب يعرف كيف ينسج حبكته. ففي خطوته الأولى، فإن الخطاب الروائي عند جمال الحنصالي يبتعد كثيرا عن التقريرية المباشرة، خطابه السردي يتسم بالعمق، يستنطق الأشخاص والمكان والزمان ويمنحها دلالات مفتوحة تكشف عن واقع مرّ في صراع الإنسان مع الحياة ... وعن الأقدار التي تغير مجراه في لحظات لم تكن منتظرة... عن مسارات أشخاص جمعهم القدر في مكان واحد في مدرسة بعيدة وعليهم أن يعطوا معنى لحياتهم ...

الرواية تأخذ جماليتها في نجاح الكاتب بالمزج بين الرواية الواقعية وجانب من السيرة الذاتية... لتبرز أحداثا واقعية ولشخصيات تتعرض لأزمات وعليها أن تغير واقعها رغم الخيبات التي تصادفها ... هذه الازدواجية بين الواقعي والسيرذاتي منحت للرواية متعة باذخة من خلال التصوير

الصادق للشخصيات وحياتها اليومية، ليس بشكل فج بسيط، لكن من خلال الكشف الداخلي للإنسان ومن خلال علاقاته بالعالم الذي يحيط به .

الرواية من جهة أخرى هي رحلة إلى المغرب العميق، بعيداً، قرية إد عيسى، إلى إحدى الوحدات المدرسية ... كاشفة عن جمال الطبيعة وعن قساوتها في نفس الوقت ... عن شخصيات تعيش مصائر مختلفة، الكورتي، سائق الطاكسي، حارس المدرسة، سي مبارك، الحسين، سي إبراهيم، صافية، وخاصة زريد ... ثم السارد نفسه، عليه أن يتخلى عن ما يحمله من أفكار وما تلقاه في مركز التكوين ليواجه واقعا جديداً، ويسترجع ما قاله أستاذ سبق إلى الميدان ذات يوم: «ارم وراءك كل ما تعلمته من بيداغوجيات وميتولوجيات ودروس التطبيق وشمّر على ذراعيك » و على السارد أن يواجه قدره و واقعه، كما على الشخصيات كذلك أن تواجه قدرها و واقعها .

رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة كما يقول المثل الصيني، وأعتقد أن رحلة الكاتب جمال الحنصالي في روايته البكر

قد بدأت بخطوات طويلة واثقة، متورطاً في حرقه الكتابة الروائية، متسلحاً بلغة سردية دالة، متمكناً من تقنيات الحكيم والوصف و الحوار ، مازجاً بينها بتقنية جميلة في هذه الرواية البكر .

خلاصة القول، إن الرواية البكر للكاتب جمال الحنصالي ولدت ناضجة، لأنه يعرف كيف يحوكم روايته، وعلينا أن نشاركه هذه الحياكة من جديد ونعيش هذه التجربة ونحن نقرأ هذا العمل، ونبحر معاً رفقة هذا الإبداع الجميل .

حسن الرموتي

الصورة 18/11/2013



كانت البداية

هو حلم أيّ طالب مدرس بالكاد تخلص من «قيود» مركز
تكوين المدرسين والمدرسات، حلم يُراوده بعفوية متعجرفة
ويلاعب إحساساته المنكسرة بحنية مستفزة، فيغدو كذاك
الغزال السّارب حين ينفلت من قبضة غضنفر شرس، تراه
يركض فرحا مستمتعا بالحرية بمعناها الخالص.. يجري بقوة
دون اتجاه، وقد أشبل عليه الزّمن من الضيق والعبودية بين
مزدوجتين.. يلاعب الظلال، يغازل الورود، يلامس صفحة
السماء الزرقاء مبتهجا، ويمتطي نسيمات ربح الصباح الشتوية
حين تشرع في الهبوب.. أجل، لا يزور مثل هذا الشعور

مدائن إحساس أي امرئ كان، سوى من مرّ من مثل هذه
المراكز بحجراتها المطلخة بالأبيض والأزق، ذات الأبواب
المنغلقة على نفسها والنوافذ المفتحة على تلك الساحة
الضيقة وقاعة الانتظار الفسيحة قرب مكتب السيد المدير..
حينها فقط تسبّل عيونه مطر دمعٍ قد يفسره البعض أما وقد
يعتقده البعض فرحا..

الحلم صار حقيقة في طرفة عين، وتلاشت غيمة السؤال
التي كانت تحلق في سماء مستقبل الأولاد والبنات عفوا
الطلاب والطالبات، هما سنتان مضتا بكل مسراتهما
وأحزانهما، وأيامها التي مُزّقت صفحاتها العامرة ببقايا
الذكريات الجميلة من سجلات أوائل شباننا .. بلا إذن
ولا ترخيص، تعلّمنا فيها الكثير ونحن نتشّهق، بعين
طيبة، على أساتذتنا الكرام رفقة باقي الطلاب والطالبات
القادمين والقادمات من كل الاتجاهات، كلٌّ يحمل معه
تمثلاته الخاصة في ذهنه الفتى، وكذلك كلٌّ يجرّ معه إرثه
المعرفي الشخصي الخاص به، كلٌّ حسب أهوائه الغريبة
يدندن للحياة الجديدة التي يراها هكذا من زاوية نظره

الخاصّة، كلُّ وأفكاره المجهرية يستطلع آراء الآخرين بكثير
من الثقة الزائدة، كلُّ يترجم تقاليد مدينته الأصلية أو
عادات قريته الأم التي يحكي عنها ويصفها بالجميلة..
لكن الرغبة في تبديد حلقة الجهل ورسم قلوب الأمل
بطبشورة القهر الوردية على لوحة الصبية البريئة كانت
واحدة، نجحتُ في استقطاب اهتمام كل هؤلاء الطلبة
واستطاعتِ التّأليف بين قلوبهم العطشى على اختلاف
جنسهم ولسانهم، بدون أرقام تسجيل منظمة على ورقة
بيضاء، بدون تكتيكات الإدارة وحرص الأساتذة على
ضبط الصفوف الخشبية، بدون تصفيقات مدير الدروس
وصرخات الحراس ورنات الأجراس...

هي تجربة ليست كباقي التجارب التي خُصّناها
ونحن تلامذة في الإعدادي أو حتى حين غيرنا الوجهة
إلى الثانوي، يومئذ أحسنا بزغيبات متمردةٍ أبتُ إلا أن
تأخذ لها مكانا في محيط ذقوننا المليئة حبيبات حمراء،
فبدأتُ في نشر عساكرها ذوي القبعات السوداء بأنفة
وإحساسٍ بعظمةٍ مراهقٍ، وشعرنا بصلافة عظامنا، خصوصا

حين نقذف الكرة بعيدا بعيدا من الشارع الذي يشقّ
حيناً إلى حديقة الجارة فاطمة الممرضة.. ولمسنا حشيرة
أصواتنا التي صارت رخمة، تعاكس طبلة أذن المارات
بجانب الطريق المؤدية إلى التعاونية النسوية المتأبطات
طوق التطريز ونسيج الخيش وقطع القماش المنمق.. وكلما
صرخنا عاليا تهتزّ حبال صوتنا اهتزازا..

نعم، كانت أحلامنا مجرد تيجان زهرة قرنفل ذات
خريف، تتطاير بحرية في رحاب ساحة المدرسة وحول
حجرات الدراسة وخارج الأسوار العالية مراوغة أشجار
الزيتون التي تحاصر الثانوية من كل جانب..

كلُّ ذلك كان في يوم من الأيام طبعاً!

12 شتبر 1997

للمنا الأغراض من ملابسٍ ومخداتٍ وأواني الطبخ
الضرورية، لم ننس الحليب المجفّف ومصباح الجيب
ومبيدات الحشرات وأيضا مصيدة للفئران.. ثم ودعنا الأهل
والصحاب منطلقين كقوس زفيان نحو المجهول المعروف،
مقتفين أثر بلاد غامضة واضحة المعالم ... لأننا نعي جيدا
وجهتنا وندري إلى أين نحن سائرون، فالمكان مجهول أي
نعم، لكنه معروف على وجه الخريطة الذهنية للكثير منّا،
والمدرسة التي ستكون أول لقاء فيزيقي بيننا وبين التلامذة
غامضة في مخيلتنا، لكنها واضحة المعالم في شكلها كما

صورتها لنا أساتذتنا، والطريق السالكة إليها صارت محفوظة
عن ظهر قلب كما شرحها لنا «أصحاب الحسنات»، واسمها
المبثوث في قرار التعيين الذي وقعه نائب وزارة التربية الوطنية
بات جزءاً من تاريخنا...

كنا أربعة طلاب؛ أنا وعمر ابن بلدتي أما عبد العزيز وسعيد
فينحدران من مدينة الرياح؛ لن تكون إلا «الصويرة».. شاءت
الأقدار أن نتقاسم نفس الفصل الدراسي أيام التكوين، وها
نحن نتقاسم ذات الطريق الطويلة والشديدة الانعراج الذي
يُشْرَمُ حقول قمح تتراءى رؤوس سنابلها وهي في قمة الخجل
تحرسها نبات عمّة القاضي كأمر رؤوم.

كنا ندرى أن الرحلة ليست كباقي الرحلات التي
استمتعنا بها أيام الصبا، نعلم جيداً أن القادم أصعب بكل
تأكيد، وأنّ العمل في المدارس المغروسة في قمم الجبال أو
تلك المدفونة غصبا في حوض الفيافي القاحلة والمتوارية
عن الأنظار هناك خارج المدينة، مختلفٌ تماماً عن العمل
في حجرات دراسية ملونة بألوان قوس قزح، ومزينة بصور
الأطفال ذوي الشعر الأشقر والابتسامة العريضة السرمدية،

حجرات مجهزة بالوسائل التعليمية منها القديم والذي يؤرخ
لمرحلة يفتخر بها رجال التعليم، ومنها الجديد الملفوف في
بلاستيكات بيضاء لا يحرك ساكنا، ومتحف عامر بأشياء
جميلة من صنع الصّغار، وسبورة عريضة يجتاحها البياض
من كل جانب تتوسطها آثار النقر بالمسطرة الحديدية
المدرجة، وثقوب الدبابيس النحاسية تملؤها كبيوت النملات
النشيطات.. هي حجرات تعج بالتلاميذ والتلميذات
وتفتخر المدرسة العجوز بهذا الاكتظاظ الذي يحيلك على
أنشطة «السويقة» الممزوجة بصياحات الباعة المتجولين...
وحين تطلق العنان لبصرك من خلال النوافذ المشرعة على
الدوام، ترى الحافلات، وهي تنفث دخانها بسخاء حاملةً
كومة أجسادٍ بشرية منهكة نال منها التعب، وترى بني آدم في
عجلة من أمره ذاهبا أيبا في حركة دائمة يلفها الروتين القاتل،
لكنه صار من الضروريات تماما كشرب الشاي المنع عند
الأصيل، وترى أيضا تلك العمارات المثلثة بأثواب الغسيل
المنشور بحرفية وهندسة رائعتين فلا تخطئه الأبصار، وعندما
توجه نظرك إلى أسفل العمارة تجد المقهى وقد مدّت ذراعيها
لتواسي العاطلين عن العمل وعشاق المستديرة ومن لفظتهم

شقاوة الحياة الزوجية.. لتأنيك رائحة القهوة السمراء
ودخان السجائر، أما النرجيلة فترقص بين الأيدي المشققة
على نغمات الدقة المراكشية.. ولا تستيقظ من جولتك إلا
عندما تسمع صيحات التلاميذ والتلميذات منبعثة من قلب
المدرسة، ولا تدري إن كانت صيحات لهو ومرح جنوني أم
عربون عقاب يُنفذ بدون رحمة..

لكلّ مكان زمانه ولكلّ زمان مكانه.. هكذا كان يقول لنا
أستاذ علوم التربية السيد «عبد الرحيم لعربية»، «الله يذكره
بالخير»، حين كنا بالمركز. والحقيقة، أننا بتنا نحن الأربعة نعرف
ونعترف بأن مهمة التدريس صعبة سواء بالمدينة أو القرية،
لكن التجربة الأولى تكون دائما قاسية، تماما كأول جرعة
دواء مرّ يخترق حنجرة العليل. وهي نفس الحكاية الممزوجة
بالدراما التي يحكيها لنا من سبقونا إلى الميدان، إذ يقولون:

- « ارم وراء ظهرك كل ما تعلمته من بيداغوجيات
وميتولوجيات ودروس التطبيق .. وشمّر على ذراعك
واعتمد على نفسك، والوزرة الناصع البياض التي تتحسسها
فتجدها اليوم ملساء ستصير حرشاء مهترئة مستسلمة لنقع
الطبشورة البيضاء تجتاحها بلا رحمة.. »

هكذا كانوا يعبرون بكثير من الثقة في النفس أحيانا وكثير من الاستفزاز والسخرية أحيين أخرى. مع ذلك مددنا أيدينا تضرعا للخالق طمعا في تحقيق المراد، وبسطنا أرجلنا طاردين خفافيش الخوف من كهف قلوبنا الحيارى، واستلقينا على بساط ريح من صنع هواجننا، وأمرناه سرًا لا جهرا أن يسير بنا بعيون مغمضة حاملة، كما قدر لنا من ذرأنا وأنشأنا في أحسن صورة..

هي طبيعة الشباب التي تتحدث عن صناعة الأمل، والغد بالنسبة لهم شيء أجمل من لوحة الجوكاندا أو شلالات نيفادا، هو شيء رائع يفوق روعة حدائق بابل وبرج إيفل، هو شيء أمتن من تمثال رودس أو زوس في أولمبيا... هذا الغد القريب بالنسبة لهم خارق للعادة، يستعمر كيانهم ويتملك إرهاباتهم، قد يشبه في عظمته هرم الجيزة أو منارة الإسكندرية ويمتد إلى السماء شامخا كشموخ جبال الأطلس المغربية، فلا يهتز ولا يتصدع.. هي الثقة الكبيرة إذن، بل إنه الطموح الجارف حقًا! وحين يكون زائدا بقدر قليل يراه الآخر تعنتا وتمردا.

مع الأسف هي الحقيقة!



اصطدام بالواقع . . .

ونحن قادمون إلى الواقع الجديد... تركنا وراءنا كل تلك الأمانى المزركشة كمنديل طرّزته فتاة عاشقة ومترددة في حبها .. رحلتنا بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة، صرنا نقترّب أكثر فأكثر من الغد الذي انتظرناه طويلا، ورسمنا له أبهى الصور على جدران مركز تكوين المعلمين والمعلمات، وكتبنا عنه في دفاتر الذكريات الشّقية المليئة قلوبا وردية وصور فنّانين وفنانات من كل الجنسيات، ونقشناه على الطاومات المتآكلة والتي انضمت إلى حزب المتلاشيات، واعتصمت قرب خزانة الكتب المجاورة لبيت حارس المركز ... ذاك القصير الأعور..

دنا مني عمّر هامسا في أذني، وقد كانت رائحة فمه كريهة جراء تناوله بيضة مسلوقة انتهت صلاحيتها البيولوجية، ولم

يكف الذباب عن جولاته وصولاته، يدنّ مقترباً من نصف
خبزته الملفوفة في ورقة منقطة زيتاً، ثم قال:

- إنها بلدة «لخصاص» .. أعرفها من شكل مبانيها
المتراصة، ورجالها ذوي اللحي الكثّة ونسائها المختفية
أجسادهن في لحاف أسود، تشدّه إبزيمات من فضة متشبثة
بهوية عظيمة وتاريخ لا يُقهر. أما الأطفال المتمدرسين في
هذه البلدة المنسية فعددهم على رؤوس الأصابع، والآخرين
منهم من هاجر قسراً إلى مدن أكبر مساحة، ومنهم من فضل
الانتشار على الأرصفة المغروسة بمحاذاة الطريق الرئيسية،
المؤدية إلى بوابة الصحراء.. كنتُ أمرّ من هنا حين تابعت
دراستي بمدينة «العيون» الجميلة. غريبٌ أمر هذه البلدة يا
صديقي، لم تتغير أبداً..

سألته بتأفف، خانقا فتحتني أنفي بسبابتي وإبهامي، وأنا
على وشك إطلاق سراح قيء يستعد للانفجار:

- لماذا يا «عمر»؟ فكل البلدات الصغيرة تبقى صغيرة
ردحا من الزمن، لا تتطور ولا تكبر..

نظر إليّ شزراً من خلف نظاراته السوداء المستعملة، وردّ
وهو يمزغ آخر لقمة:

- لست في حوار مع برلمانيّ يا «جلال»، أنا مجرد مدرس
بسيط وقلتُ بصدق ما أعرفه عن هذه البلدة المنسية ...

قاطعت كلامه ومطارق تدق برأسي بحنكة الصانع
التقليدي، وتابعتُ حوارِي معه وقلتُ:

- لا تقل عنها منسية، ربما قدرها أن تكون كذلك، لكل هذه
القطعة الغالية من أرض الوطن نعتز بها كثيرا، كما يعتز بها
كل المغاربة، ولو لم نكن كذلك لما وضعنا علامة أمامها ونحن
نعبي لائحة التعيينات يا صديقي!

- لنقلُ يا «جلال» أنه القدر وقد ساقنا إلى هذه المنطقة رغما
عن أنفنا..

- أليست قطعة من أرض الوطن؟

- بلى،

- أتعرف ما قال «هوميروس» في حق أرض الوطن؟

- لا، ذكرني يا عاشق الأقوال والحكم..

- ليس هناك شيء في الدنيا أعذب من أرض الوطن.

وعلى حين غفلة منا جميعا، توقف محرك الطاكسي
الكبير ذي اللون الأخضر الفاقع عن الدوران، لكن خفقات
قلوبنا لم تتوقف.. بل تضاعفت. قد يكون السبب هو طول
الرحلة وقد يكون أيضا خوف من مواجهة الواقع الجديد، لكن

البعض منا أخذ قسطا وافرا من الراحة، كصديقنا سعيد، مثلا، والذي تمدد على الكرسي الخلفي للطاكسي، ورخص لأحلامه أن تزور مخيلة إحساسه المرهف، بل وأذن لها أن ترقص على إيقاعات شخيره المميز، رغم الظرف الحرج الذي نمرّ منه جميعا.

لم يستيقظ «سعيد» إلا حين تعالت صيحات (الكورتيي) الملقب بالبعمراني، حيث أخبرنا، بصوته المزمجر، أننا قد وصلنا والحمد لله. كانت عيونه رغم صغر حجم بؤبؤيهما، تراقب كل شيء بافتحاص كبير وفضول أكبر، وليس كما فعل شرطي المرور، أثناء رحلتنا، حين مهّز صاحبه كي يختلي بالسائق، وفعلا بقي واقفا وراء الطاكسي دون أن يحرك ساكنا، حتى صافحه «سي علي» السائق الودود مصافحة كانت سريعة كألعاب خفة اليد، ثم أشار له الشرطي وقد استعرض عضلاته بالمرور، بعد أن دسّ الورقة الملونة ذات الأرقام المأوية في جيب سترته الزرقاء الداكنة، مبتسما ناظرا إلى الجهة المقابلة مستعدا لصيد جديد.

أخرجنا حقائبنا من صندوق الطاكسي، وقد اعتلتها غبرة أرجوانية اللون، مزوجة بكثير من الأتربة التي سمحت

لنفسها بالدخول من الشقق المرسومة على ظهر الطاكسي،
جراء الصدمات المتكررة مع الأرصفة ومع السيارات المتهورة
التي تقودها أجساد خاوية من الإنسانية والإحساس بالحياة
..

رمص بعضنا البعض وكأننا غرباء لا يعرف الواحد منا
الأخر، تناظرت الأشياء كلها أمامنا، واختلطت تمثلاتنا للواقع
الجديد بأحلامنا التي تلونت بالرمادي في لمح البصر، فالأمر
صار أكثر جدية كجدية صاحب العربة اليدوية الذي بقي
واقفا ينتظر بصبر كبير إشارة من أحدنا، هي لحظات حاسمة
قد يتسم فيها الحظ ويعود بقطعة لحم مجهرية وحببات غناب
أسود للأولاد والبنات، وقد يعبس في وجهه ويثني عائدا
خالي الوفاض إلى بيته الصغير، يفكر في عذر من الأعذار
التي يؤلفها عادة في تلك الأماسي القاسية، ليلقيها على
زوجته المنتظرة ... هناك ... في أعلى كومة للأزبال المنثورة
والمتلاشيات المستطيرة..

نظر إلي «عبد العزيز» وقد رسم ابتسامة حزينة على وجهه
المتعب جراء السفر، وقال بعفويته المعهودة:

- صاحبي «جلال»، لقد أضعت بطاياتي التي ستحميني
من الزمهرير والبرد القارس الذي يستعمر هذه البلاد
السعيدة.. أه، ما هذا الحظ العاثر!!

بلغة النكتة الجميلة سألته بدوري:

- أين كان عقلك يا «عبد العزيز» حتى ضاعت منك
البطانيات؟؟ هل كنت تفكر في خطيبتك!

حرك رأسه يمينا وشمالا وهو يتحسر، وانحنى قليلا واضعا
كلتا يديه على ركبتيه التي فشلتا في هز جسده المنهك، وقال:

- لن تتغير يا «جلال»، لن تتغير... أنا أتحدث بصدق
وبحرقة أيضا، وأنت تضحك وكأن الأمر عادي، «الله
يسمح لك»!

رغم أنني، فعلا، لم أدرك حجم معاناته، إلا أن الواقعة
كانت بالنسبة لي «نكتة»، فسألته هذه المرة بنوع من الجدية
المغلظة بالهزل:

- أين ضاعت هذه البطانيات منك؟

- تركتها في الحافلة!

- وإلى أين كانت وجهتها؟

- مدينة «طنطان»..

- أووووه! بعيدة جدا هذه المدينة يا صديقي، أليس
كذلك؟

- لا يا عزيزي «جلال»، إنها على بعد خطوات فقط من

هذه البلدة، سأتمشى قليلا وها أنا بمدينة «طنطان»

لم أستطع متابعة الحوار، نظرتُ إليه، وقد حبستُ ضحكة تستعد للانفلات من قبضة شفتي، فرغم أنّ رأسي يدور كناعورة موسم سيدي علي إسحاق بإمنتانوت، إلا أن الحدث في حد ذاته جعلني أرغب في إطلاق سراح أول قهقهة مزعجة في هذه البلاد السعيدة.. وضعتُ يدي على كتف «عبد العزيز»، وقلت له بصوت خافت:

- إذا كتب الله لك أن تجد البطانيات وكانت من رزقك،
فستجدها بكل تأكيد !

كَنَع عبد العزيز أَصَابَهُ ثم عاتبني كثيرا، بعد أن أزاح
يدي من على كتفه غاضبا وقال:

- أنا لست جدتك، كي تخاطبني بهذا الأسلوب، لستُ
في حاجة إلى غذاء روحي، إنّ بدني يقشعر بمجرد
التفكير في قضاء ليلة باردة في العراء بدون غطاء..

أدركتُ فجأة أن الأمر خرج من شرنقة الهزل الذي ألفناه
معا، وصار فراشٌ جدٌّ ومعقول مبعوث منتشر على صفحة
إحساساته المهزوزة، حاولتُ أن أعزف على أوتار أعصابه

الهائية لحنا هادئا كي ينسى ما حدث، وأن أقنعه بالفكرة التي مفادها أن القدر لا مفرّ منه خيرا كان أم شرّا ... لكن دون جدوى ..

ما كان على «عبد العزيز» إلا أن يركب هواه ويمتطي أفكاره المجنونة، فتركنا نحن الثلاثة في اصطدام صارخ بالواقع الجديد. الحظ أو القدر.. لا يهم المصطلح بقدر ما يهم الحدث في حد ذاته، إذ لم ينتظر «عبد العزيز» إلا قبسة زمن حتى وقفت شاحنة متوسطة الحجم كتّب على أحد جانبيها «سمك طري». حجبت الشاحنة، عن أنظارنا، جسد صديقنا «عبد العزيز»، حيث كان واقفا على الرصيف من الجهة المقابلة.. دار الحديث بين السائق و«عبد العزيز» بضع ثوان، ثم انطلقت الشاحنة مستعدة لالتهام الكيلومترات جنوبا.. لم تنقل السمك فقط بل نقلت معها أيضا صديقنا.. كانت هذه مفاجأة بالنسبة لنا، وكما تركت الشاحنة دخانها الأسود خلفها يتطاير، تركت أيضا دخان حيرة شممنا على مضض، ونحن الثلاثة ننظر إليها تختفي شيئا فشيئا حتى صارت مجهرية كلعب الأطفال ثم اختفت بالكامل ...

من يكون هذا السائق؟؟

سؤال رافقنا نحن الثلاثة إلى مقر المدرسة المركزية، ولم يكن خير رفيق ومؤنس كالصديق «عبد العزيز»، إذ ظل صامتا مستفزا، ما انفك يلاعب أفكارنا كلغز مشاكس.. هذا فضلا عن كونه من الركاب الأشباح، لم يتعرف عليه سائق البيكوب Pick up «المعلم السوسي» الذي لم يكف عن البزق طوال الطريق غير المعبدة طبعاً.. فالأرض هنا صلدة تحميها صحور مسننة وعلى جنباتها نباتات شوكية تنظر إلينا زهيراتها بأنفة وكبرياء، هي طريق وعرة لا يعرف خباياها إلا قروي محترف كالسائق «السوسي»..

سألته عن المسافة التي تفصل بين بلدة «لخصاص» وقرية «أربعاء أيت عبد الله» 3 ورد قائلا:

- « سنمرّ بقرية صغيرة ثم منحرج خفيف بجانبه بئر عميقة، بعدها نقطع مسافة ليس طويلة، سيظهر سوق يؤمه الزوار من كل ناحية.. حينها نصل إن شاء الله بدون عناء ولا مشقة..»

استغربنا جميعا من كلامه الموزون، إلا الركاب الآخرين المنزويين خلف السيارة المدهشة، نعم، فرغم أن «السوسي»

أذاقنا المرارة بكثرة بزقه المتكرر، إلا أننا اكتشفنا أنه شاعر
عالط يحسن اللعب بالكلمات الرنانة ولغته الأمازيغية راقية،
وطبعا يصنع الحكمة في أبهى صورها كما يصنع شعرا في
دقائق معدودة، هو شاعر بالفطرة لا يحتاج إلى كوب قهوة
سمراء ولا إلى جلسة في مقهى شعبية، يستنشق فيها دخان
الحفلات العمومية والسجائر المنتحرة حرقا بين أصابع
المنهزمين في معركة الحياة اليومية، هو يحتاج فقط إلى نص
موضوع صادق ليس إلا..

الرّهبة الأولى

«سي مبارك» مدير المجموعة المدرسية ذاك الرجل ذو القامة الطويلة النحيف الجسم الملتف في بُرنسه الأبيض.. هو شيخ شارف على السبعين من عمره الحقيقي، لكنه مازال مقبلا على العمل الإداري بنهم شباب اليوم، لأن عمره المزيّف سمح له بأداء هذه المهمة ! تراه مؤمنا بعمله فيؤديه على أكمل وجه، كما يؤدي صلاة الفجر تماما كل يوم..

كان يتبختر في مشيته البطيئة، ناظرا إلى السماء وهو في قلب ساحة المدرسة العامرة أحجارا ولعب أطفال من صنعهم وإبداعهم الخاص، وأوراقا ممزقة تختبئ خلف الحجرات

الدراسية، وشظايا كراسات زيّفتِ الشمس ألوانها الحقيقية،
وبقايا علب سردين متناثرة بمحاذاة المراحيض المقرفة رائحتها،
تكشف بشفافية عن خدمة الإطعام المدرسي بعيدا عن
الخطابات الواهية التي يحسن تشكيّلها أصحاب القرارات
السياسية..

المدير/الشيخ كان هناك، ذاهبا أيّا متأبطا سجلات
برتقالية اللون، في يده اليمنى سُبحة وفي اليسرى يُجلجل
مفاتيح مختلفة الأحجام بخيوط حمراء وصفراء متدلّية، ما
أن تصطاد عصيات بصره العجوزة طفلا يحاول تسلق جدار
المدرسة، حتى ينحني باحثا عن أقرب حجرة يرشقه بها،
كما يرشق الراعي عنزة تشجعت فقررت تسلق شجيرات
الأركان «المقدسة».

فعلا، كان هذا العجوز في انتظارنا، كما أخبرنا الأستاذ
مصطفى بمقر النيابة الإقليمية، بحزمه الكبير وكرم ضيافته
البيّن.. كان واقفا هناك... حيث أشجار الأركان تجتمع في
لحظات ود وعشق كل مساء، تحيط بالحجرات الدراسية
المتآكل سقفها القصديري، والمفتوحة أبوابها على الدوام في
وجه الزوار الأدميين وغير الأدميين.. أبواب خشبية متهشم
نصفها، تحكي فعلا قصة انفتاح المدرسة على المحيط الخارجي
كما رواها الفيلسوف إدغار موران..

نزل جميع ركاب سيارة الشاعر؛ الحيوانات الأليفة أولاً
ثم الطيور الداجنة فالرجال بعدهم النساء مباشرة وأخيراً
الأطفال، لم يبق إلا المعلمون الجدد .. أنا وعمر وسعيد أما
عبد العزيز فما زال مصيره مجهولاً بالنسبة لنا. لم أستطع
النزول من السيارة شبه المتفحمة، ليس لأنني عشقت ممتص
صدماتها الناعم ووقعت في غرام صوت مكبحتها الشجي
وأحببت ذاك الكرسي «المريح» الذي أشبع مؤخرتي وخزات
أسلاكه المتوحشة.. أما عادم هذه السيارة فكان سخياً، يغدق
علينا بروائح الزكية طوال الرحلة...

شرعت في مسح المكان الجديد مسحاً بصرياً، نظرتُ
من خلال زجاج نافذة هذه السيارة الغربية، بعد أن محيت
بمנדيلٍ، لا أدري كيف وقع بين يدي، رسائل الغرام التي
دوّنها الذباب الولهان على الزجاج. وأنا أرى نظري من
هذه الناحية ومن تلك وفوق هذا التل وخلف تلك المنازل
الطينية... أفزعني، في لحظة تأمل، وجه صبي في العاشرة
من عمره، لقد فاجأني وهو يحذق إلي بعيون زينة العمش
وأنف مقبب لا يسمح بمرور ذرات الأكسجين، لأن الفتحتين
مغلقتين تماماً... خلته «جنياً» كذاك الذي تصفه جدتي
«فاظمة»، وهي تحكي حكايات الزمن الغابر الذي لا نعرف

عنه أي شيء إلا هي. كان الأمر كافيا لكي يحررني من الكسل الذي دبّ في جسدي، جراء جلسة غير صحية أثناء الرحلة. قفزتُ من مكاني وبصعوبة فككت حبالا لم يكن أبدا حزام سلامة بل كانت مهمته إغلاق الباب الأمامي للسيارة العجيبة لأن المكبس ترك مكانه شاغرا.. وأخيرا نجحت في النزول ومعني أصدقائي الواحد تلو الآخر، هذا ليس نظاما ألمانيا ولا هو بلباقة فرنسية منا نحن الثلاثة، بل فرض عليهم كرسي السيارة ذلك، ينزل الراكب الأمامي أولا فيسمح للآخرين بالنزول من بعده..

قبل أن نلج باب المدرسة الحديدي، كان علينا أن نمرّ قرب نساء ملفوفات في إزار أسود غير مطرز، يدكن صوفا بمعاجف خشبية وهنّ في قمة السعادة أو هكذا يخيل إلينا؛ فصيححاتهن تجوب الوادي طولاً وعرضاً، وأنغامهن الشجية تعلن عن ميلاد سمفونية الأمل الضائع في هذه الفيافي المنسية.. أدر كنا بعد مدة ليست بالقصيرة في معاشررة القوم الجديد، أن سرّ الإزار غير المطرز له معزى اجتماعي صرف، فالطرز في مخيال أهل المنطقة له علاقة وطيدة بغشاء البكارة، واللون الأسود له علاقة بتحول بيولوجي من بنت إلى أم.

الساعة تشير إلى الرابعة والنصف بعد الزوال، دخلنا المدرسة ورهبةٌ شقيةٌ مشاكسةٌ تخرق الأفتدة الثلاثة، كنتُ أول من مدَّ يده للسلام على السيد المدير، ونحن داخل مكتبه الخاص، فأنا الوحيد الذي تخلص من قيود الرهبة الأولى بكل سلاسة، لما لا وأنا ابن مدير أيضا !!! صافحت «سي مبارك» بأشأ وقلتُ:

- أنا «جلال» وهذا يدعى ...

قاطع المدير كلامي، وبصوته المرتجف ردّ قائلاً:

- تحدث عن نفسك فقط يا ... يا ...

- جلال يا سيدي المدير ..

- نعم، يا «جلال»، تحدث عن نفسك ثم لا تنعتني من

اليوم فصاعداً بالسيد المدير، أنا معلم مثلك ويكفي أن

تقول «دًا مبارك» لأننا صرنا إخوة.

تنهدتُ تنهيدة عميقة، وقد برزت في جبيني فقاعات عرق

مجهرية باردة، أبت إلا أن تعلن عن نهاية «الرهبة الأولى» .. ثم

تحرّر لساني في لحظة وجيزة. جررت كرسيًا خشبياً وسمحت

لجسدي المنهك أن يستريح بالقرب من مكتب المدير،

وضعتُ حقيبة السفر بين رجلي، كي أخفي أوساخاً اعتلت

حدائي النبي، ورحتُ أحكي للشيخ بطلاقة عن مدينتي
الأصلية ومسقط رأسي، وعن أبي وعن مجموعتي الغنائية،
وعن حكاياتي المضحكة حين كنت صبيا وأشياء أخرى...
حتى انتزعتُ ضحكة صريحة من المدير كشفتُ خرابا في
نظام أسنانه، تلتها أحةٌ فأخرى فضحتُ علته وسنه الحقيقي،
فما كان عليه إلا أن يشرب شربة ماء زلال كان مستقرا في
قاع قلة ارتدت معظفا صوفيا، سئم الأجساد البشرية فتطوع
لتبريد ماء القلل، لكنه دائما في خدمة البشر وتحت رحمته.

إلى «إد عيسى»

اصفرّ وجه الشمس فجأة وتجهّم، فشرعت في جمع
خصلات أشعتها المتعبة طوال النهار وهي تستعد، بكل
روح رياضية، لترك ساحة المبارزة لخيوط ليل «أربعاء أيت
عبد الله» كي تسيطر على ساحة السماء الوفية للون الأزرق
الفاتح طوال الرحلة، واستأرض سديم مخادع تسلل برشاقة
الساحر من بين شقوق الهواء، على حين غرة من الجميع،
ليستعمر قرية «إد عيسى» بكاملها في لمح البصر.. هي قرية
لفها الضباب الرباني من جهة وضمّها الضباب البشري من
جهة أخرى. قرية زج بها النسيان في قاع الجنوب المغربي،

فتواتر عن الأنظار محتبئة خلف هضاب تحضن نباتات
شوكية مختلفة الألوان والأشكال، وتعزز بأشجار الأركان
المجيدة في كل المناسبات وفي جميع الأحوال.. هي قرية
جميلة هادئة أو هكذا خُيِّل إلينا ذات يوم..

على أي، قرية «إد عسيى» قدرنا والله الحمد، ها هي ذي
تترأى لنا مدرستها الفرعية وهي ترتدي لباس العيد،
استعدادا لاستقبالنا نحن الثلاثة - في انتظار صديقنا عزيز-
بحفاوة أهلها وناسها الطيبين..

الطريق الفاصلة بين المدرسة المركزية والفرعية كانت وعرة
وملتوية، تارة تحفزنا على المشي السريع فتكون كريمة وحنونة،
وتارة أخرى تقسو علينا، فتحبس أنفاسنا كأنها تعاقبنا أو
تعاتبنا على هذا الاختيار المجنون، وهذه الشماقة المنبتقة من
فكر مازال يحن إلى أيام المراهقة الجميلة.. لكن، ورغم كل
ذلك، كانت الطريق صريحة جدا، وأظهرت لنا بجلاء أن
الأيام القادمة ستكون عصبية. قطعناها مشيا على الأقدام،
طبعا، وبأعصاب متوترة، رفقة «العم سعيد» المسؤول عن طهي
الطعام لتلميذات وتلاميذ المدرسة، فلولا ه لسرقنا بنات عمّ

هذه الطريق الصديقة، تلك الطرق المشاكسة التي تخترق في خلسة ماكرة الطريق الأم، وإذا لم تكن من أبناء المنطقة على حق، وشربت ماء «النطفية» ورقصت على إيقاعات «أحواش» وأكلت السنجاب بالجرز وزيت الأركان وأكلت خبز «تفرنوت».. أكيد ستسقطك في الفخ وستجد نفسك في قرية أخرى.

كنا نسير خلف «العم سعيد»، ونحن مطمئنين، في نظام وانتظام راسمين على أديم الأرض صفاً مستقيماً أشبه بصف النملات الباحثات عن حبات القمح، فالطريق السالكة ضيقة للغاية، لا تسمح بأكثر من زائر وسائر. هي صرامة الطبيعة وعزة نفسها وكبريائها، لا تقبل أي اعتذار ولا تنهزم تحت أي إغراء.. سياستها واضحة المعالم وإملاءاتها صريحة لا تقبل الجدل، ليست مستبدة بل صارمة.. فيا ليتنا تعلمنا منها كما تعلمنا من العصافير فن الطيران ومن زفرات الريح فن الموسيقى...

قبل أن نتوغل في هذه الطريق التي صنعتها أقدام الرجال والنساء والأطفال جيئةً وذهاباً إلى سوق «أربعاء أيت عبد الله»، كنا لا نكف عن الكلام المباح، نتقاسم الضحكة فالغمزة

فالفقهية، وبين الفينة والأخرى نطلق العنان لأبصارنا الفتية
تصور المناظر الغريبة والخلافة في ذات الآن، وقليلًا ما نلجم
اللسان لنترك المجال لمرافقنا «العم سعيد» ليحيك أسئلته
الدقيقة، بعفوية جميلة فيها كثيرٌ من البراءة ممزوجة بصفاء
النية النادرة الوجود.

- من أي مدينة قدمتم يا شباب؟

صديقنا «سعيد» والذي ظل وفيا لصمته المطبق طوال
الرحلة، تخلص أخيرا من «جلباب أبيه»، وكان أول من رد
على «العم سعيد»:

- لن يجيب «سعيد» إلا «سعيدا» آخر ههههه، «جلال»
و«عمر» من مدينة اللوز والجوز وجبال «أركوس»، أما
أنا وعبد العزيز فننحدر من مدينة الصويرة، تعرفها يا
رجل! هل سمعت بمهرجان «كناوة» الدولي من قبل؟

توقف «العم سعيد» عن السير وناوحه، بعد أن بصق عجم
عنب كان يلعب به لسانه في فمه.. والعرق كان يسيل على
جبينه يغازل تجاعيدا رسمها الزمن بحرفية، ثم رد عليه:

- طبعاً، أعرفه يا «فقيه»، إنني أتابع برامج الإذاعة عبر المذياع الذي ورثته عن جدي «محمد».. اييه !! أرزاق يا بني. كان هذا المذياع سيسافر قسراً إلى الديار الفرنسية، لكن جدي أخفاه عن أنظار المستعمر، فكان من نصيبي حين تزوجتُ وأنا في الثامنة عشر من العمر..

أنهى «الطباخ» حوارَه مع صديقنا «سعيد» بمناظرة بطلتها العين ومدارها نظراتٍ صامتة، ثم انحنى بخفة الشباب على شريحة مصنوعة من القصب، ربما رماها راع أو فقدها أحد رواد السوق، فحملها كما يحمل الجندي المنكسرة أنفته بندقيته، وأشار إليها في اتجاهنا قائلاً:

- أسرعوا الخطى، وإلا سنكون عرضة للكلاب الضالة!

ابتسم «عمر»، وهو يحكم إغلاق حزام سرواله الأسود، وقال:

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، صدق الله العظيم. هو الذي قدّر لنا أن نسير معاً في هذه اللجمة من الوادي الفاحل.

استغرب «العم سعيد» من كلام صديقنا عمر، ودنا

منه مهمهما:

- عن أي واد تتحدث يا معلم؟ هذا ليس بواد إنها طريق
من الطرق التي يسلكها التجار وبائعو المواشي في سوق
«ثلاثاء لخصاص»...

استسلمنا جميعا لفكرة «القدر» التي تحدث عنها عمر،
وأنشأنا نراوغ زهور الحوذان بتيجانها الصفراء المتوهجة،
ويستوقفنا جمال نبتة القرقاص، وتارة نضطر لقفز العرفج
الذي ينتشر كدبابات حرب مستعصية..

«العم سعيد» في المقدمة دائما، تراه يتفقد الأمكنة بكثير
من الاهتمام، بشريجهته يرسم خطأ متعرجا يتركه وراءه، وكأنه
يوحي لنا بالصواب من الخطأ.. خيم الليل بهدوء غريب،
كما خيم الصمت علينا، وتحولت عيوننا المتعبة من التسلية
والتصوير المجاني إلى مصابيح كاشفة. ظهورنا أيضا سئمت
حمل الحقائق المبللة عرقا..

لا نكاد نسمع إلى خشخشة النبات الشوكي وهو ينكسر
من شدة وطء الأقدام، والأنفاس التي تتسابق من أجل
الخروج زفيرا ثم تعود شهيقا عميقا إلى بيتها الرئوي.. فجأة،
صاح «العم سعيد» بصوته القروي الحاد:

- لقد وصلنا والله الحمد!

ليلة ذات قرس

جثم الليل بهدوء مخيف دون أن يستأذن منا، لم يرأف بنا، لم يدعنا نستمتع بتضاريس المنطقة التي نكتشفها لأول مرة، فالوقت في هذه القرية النائبة لا يرحم زوارها، والسّواد انشتر في كل مكان، ما برح يساورنا فيعيق بصرنا كأنه يعارض فلسفة أحلامنا. فما كان على «عمر» إلا أن استلّ مصباحاً من جيب معطفه الأرقش، فأطلق العنان لالكترونات ضوئية صارعت بشراسة حلقة الليل المجنونة.

ولجنا المدرسة هكذا بدون أن ندلف من بابٍ أو نتسلق جداراً أو نستأذن من حارس، فجأة وجدنا أنفسنا في قلب

«الساحة»، هكذا، بكل صراحة وبساطة وحرية لا مثيل لها. الساحة فسيحة للغاية واثقة من نفسها، مستبدة ومتعجرفة، تمتد حتى تلامس سنابك الحقول المنتشرة هنا وهناك، وتصافح البيوت الطينية المتاخمة للمدرسة والتي تطل عليها بخجل طفولي... فتبرق عيون هذه البيوت الملصقة على صفحة الجبل بضوء ضئيل، نراه من بعيد كحشرة الحبابح بلونها الأخضر الناصع.

صاح «العم سعيد» بعد أن حوّل عينيه من شدة التعب، وهو يحاول كسر مزلاج باب مسكن الأساتذة الجدد، قائلاً:

- ربما ستقضون الليلة في العراء يا «فقهاء»، هذا الباب عصي على الفتح، محكم الإغلاق... جربتُ جميع المفاتيح التي أعطاني إياها «سي مبارك»... دون جدوى! ربما غيرّها المعلم القديم الذي انتقل إلى مدرسة أخرى بسيدي إفني! ربما... ربما...

نظر إلينا وهو ينفث دخان سجارته الرخيصة، بكثير من الاهتمام، ينتظر ردة فعل منّا، قد تنفجر لتزعزع المكان أو قد تخمد نارها في لحظة انهزام..

لكننا، ومع كل ما تحملناه من مشاق وما نصادفه من متاعب ومفاجآت، لم نحرك ساكناً، وحتّمنا على اللسان أن

يظل وفيًا لسكوته المطبق، واكتفينا بالتعبير موظفين ملامح
وجوهنا البئيسة، وجوارحنا التي استعمرها التعب.. رمينا
أمتعتنا بتأفف وحسرة، كفريق كرة قدم تلقى هزيمة في الوقت
بدل الضائع.. وهوينا إلى الأرض كأكياس رمل ثقيلة.

«سعيد» كورّ عمامة على رأسه واتكأ على جذع شجرة
سامقة، أبت إلا أن تسدي له أول خدمة لها في هذه البلاد
السعيدة.. مصمص شفثيه الياستين وابتسم كعادته، ونحج
في كسر صمت الليلة الباردة ثم قال:

- غريب أمر هذه العمامة يا رفاق، فقبل أن أهم بالخروج
من منزلنا المختبئ في قلب المدينة القديمة، سمعت ابنة جارتنا
«زبيدة» تناديني من الشرفة بصوتها المبحوح دائما والمزعج
أحيين كثيرة، توقفتُ فقط لشراء أعواد الثقاب من دكان
البقالة وليس من أجلها طبعًا، وفي رمشة عين وجدتها بجانبني
تمدني بعمامة بيضاء، قبلت الهدية على مضض وصنعت
ابتسامة صفراء وجاملتها ثم ودعتها بغصة في الحلق....
لم يدر بخلدي أنني سأحتاجها في هذه الليلة الاستثنائية
...هههه وها أنا ألفتها على رأسي كقائد فرقة أحواش.

هل هو قدرى؟

سؤال ما انفك يجوب زقاق خواطر «سعيد» يغازل النهى،
حتى استقر في قاع قلبه واستوى.. وفي الحقيقة، كل واحد
منّا بات يسأل نفسه ذات الأسئلة الكبرى.

هل هو قدرنا؟

لم يكف تفكيرنا عن صياغة الأسئلة المضنية، والوقت يمر
بسرعة وأجسادنا مازالت تحت سقف السماء القائمة.. بقينا
متسمرين في أماكننا حتى لاعنا الجوع ليعةً منقطعة النظير،
ذكرتنا بالأيام الأولى من شهر الغفران قبيل الغروب بساعة
ونصف الساعة، فأخذت عصفير البطون تصفب بنشاط
ترقص على إيقاعات موسيقى الأمعاء الخاوية...

وفي غفلة عنّا جميعاً، سمعنا خربشة يدٍ بشرية تتوغل في
محفظة بلاستيكية.. كانت يد صديقنا «عمر» وقد اصطاد
كيس ذرى محمصة أعدته له والدته... كان سيتخلص منها في
باب المحطة، حين كنّا في انتظار سيارة الأجرة الكبيرة.. لكنني
طلبت منه أن يحتفظ بها من أجل الأطفال الذين سنستقبلهم
بالمدرسة.. إلّا أننا صرنا نحن هؤلاء الأطفال!

كانت الذرى المحمصه وجبة عشاء لذيدة بين قوسين،
تقاسمناها كما تقاسمنا قدرنا المحتوم، وتقاسمنا أيضا نظرات
فيها الكثير من العبر والكثير الشجون الذي فيه من التأمل
في الواقع الجديد، ما يكفي لصناعة سمفونية القلب المهموم..
لا كلام ولا همسات فقط حركات الفكين صعودا ونزولا
ولوكات الألسنة وصوت المضغ حين تصطدم الأضراس
بحبات الذرى العنيدة.. مع قليل من زفرات الريح الشمالية،
تنفخ في ثقب الحجرات الدراسية، فتصنع ألحانا أشبه بموسيقى
أفلام الرعب للممثل الأمريكي «ريتشارد لينش» ..

«العم سعيد» وفي آخر محاولاته اليائسة تمكن أخيرا من
فتح باب المسكن المسكين، مستعينا بقضيب حديدي،
وجده مرميا بمحاذاة «النطفية»..

اتكأ على هذا القضيب ونظر إلينا مبتسما، بعض أن شاط
به الغضب قبل حين، وقال:

- كثيرا ما حذرت ابني «الحسن» من اللعب بهذا
القضيب، وقد أخفيت عنه إلا أنني أجده مجددا في طريقي..
سبحان الله!

وقضينا الليلة الباردة في هذا المسكن المقرف رفقة
أصدقائنا الجدد من الفئران.. لكن، كان أفضل حال من
العراء الموحش مع الكلاب الضالة التي تحب ممارسة لعبة
الانقضاض على الرقاب والعض على الأرداف.

" زوريد "

توالت الأيام الواحدة تلو الأخرى في صف مستقيم،
فسارت معطوفة على مثيلاتها المسطرة في أجندة العطل
المدرسية، وأمست تقع الشهور على إحداثيات أشكالها على
نفس منوال الطيور المغردة. لقد أصبحت زاوية نظرنا للدّوار
منفرجة، بعد أن كانت بالأمس القريب حادّة وضيقة، وحفظنا
عن ظهر قلب أسماء الزمان والمكان واستأنسنا بالمجال
الجغرافي الجديد وغطائه النباتي المتفرد، وأمست أحاسيسنا
مدودة وهواجسنا مقصورة أما مخاوفنا فباتت منقوصة..
تعرفنا على عادات وتقاليد المجتمع الصغير، قشّرناه كبرتقالة

حلوة وارتشفنا أكواب عصيرها المنعش. نعم، تعلمنا جلسة الأربعاء في لمة شرب الشاي الأخضر عند الأصيل أو عندما نحوم حول قصعة الطين، وتناول وجبة الكسكس الكستنائي بألوان طيف الخضر. تعلمنا أيضا جلسة القرفصاء حين ننتظر موعد صلاة العشاء قرب باب المسجد أو عندما نراقب سناجب الغابة المتطرفة وهي عائدة إلى أوكارها، والشوادر راكضة وهي تراوغ أشجار «الأركان».. هناك بعيدا خلف التلال الصفراء، حيث الفيافي تنتفض معلنة عن قساوة الطبيعة، لكن أشبه بقساوة أمّ تحن ولا تكره...

أصبحنا نسبغُ إلى وطن جديد، تصالحنا مع الذات ومع الواقع المرير.. وها نحن نوقع عقد انتماء عضوي إلى قرية أصبحت جزءا من ذاكرتنا البصرية، فمنازلها ذات الأشكال الهندسية الفريدة من نوعها، نُقشت في دواخلنا وهي تحكي عن ميلاد حياة جديدة.. صرنا نسير بعيون مغمضة في طرق البادية الملتوية تلك التي تسحق حجراتها كواحل القدم وتزرع سلامياته وتهد أركان مشطه.. بتنا نعرف طريق السوق بدون صبي مرافق، ومسلك المسجد بدون تردد وحيرة، تعلمنا أدبيات اللباقة في تحية النساء الملفوفات في

الإزار، فهن يهوين إلى الأرض كلما اقترب رجل منهن ولو على بعد مائة متر وما يزيد، أتقنا قواعد لعب «ظامة» على أوراق صَبَّار الأليفيرا، و«الضومينو» بقطع أخشاب الصنوبر، ولعبة «مرياس» وأشياء أخرى كثيرة.

مع مرور الوقت رسمنا همزة وصل مع جميع سكان قرية «إد عيسى» الطيبين، وبسطنا أيدينا بصفاء نية إلى الباري عز وجل، رابطين علاقة محبة مع الراعي والمزارع والفلاح.. وقطعنا الصلة مع مظاهر الحضارة وسلوكيات لطالما شكَّلت أبعاد شخصياتنا الثالثة.. أجل، هكذا ألفنا وجوه أطفال أبرياء يتأبطون كل يوم كراسات وأقلام ألوان وألواح خشبية.. وحققنا الحلم الجميل ونقشنا شوكة اللقاء الأول والبداية الصعبة في عالم الحروف ونقع الطباشير...

ذات صباح شتوي، كان يوم أحد من شهر دجنبر، هاجرت فيه الأجساد الصببانية الحجرات الدراسية، واستعمرتها الزنابير المتطفلة، ولا ضوضاء في الساحة، فقد انهزمت الحركة الدائبة في المدرسة، إلا من دقائق منقار قُبْرَتين تتنافسان في شرب رننِ ماء مطر البارحة، والذي اجتمعت قطراته في لحظة حزن عميق في جوف غطاء طاجين منبوذ خارج مسكننا..

كنتُ أول من انتصر على الكسل وهزمت جيوش النعاس
اللذيد، تخلصتُ من القيود الوهمية التي رسمتها أضغاث
أحلام مزيفة، تحكي عن شاب قروي فقير ساقته الأقدار إلى
مدينة فأصبح من أغنى الأغنياء.. فركتُ عينيّ براحة اليد
مُفتتاً كريات عمش عنيدة استوطنت جنبات عيوني، وتركت
الوسادة الزرقاء وحيدة تحتمي بالغطاء الساخن، تواسيها
أوراق مبعثرة وجدازات الدروس المشتتة وقلم رصاص يتيم
منتحر رأسه..

دون أن أزعج «عبد العزيز» النائم بجانبي والذي أتحفني
بآخر إبداعاته في الشخير، تسللت من الغرفة، وغسلتُ
وجهي بماء بارد كان محتجزاً في قارورة زجاجية لمشروب
غازي مشهور، ثم انتعلت بلغتي الصفراء الصحراوية، ولممت
بقايا عظام عكْرِشَة مصصناها ليلة البارحة ... كنتُ أفكر
في الكلب النحيف الذي يحوم حول مسكننا، في كل مرّة
ترشقه يد بشرية بحجارة مكورة، أو تقسو عليه حياة البراري
العنيفة المروعة.

هممتُ بالخروج لاستقبال شمس الصباح، دفعتُ صخرة
كنا نحكم بها إغلاق باب المسكن، فاجأني جسد شاب مهزوم
انبطح على العتبة.. هلعْتُ في صمت رهيب، فقد أفزعني
الموقف ورميتُ بعظام العِكرِشَة بعيداً، تشجعتُ في لحظة
من اللحظات، وحاولتُ دعم الشاب المكلوم مستعينا بحائط
المسكن، حيث نجحتُ في تثبيت جسده المنهك.. رفعتُ
دقات قلبي من إيقاعها حين نظرتُ إلى وجه الشاب الملطخ
بالدماء القاتمة والجافة وقد عربتُ جروح اكتسحتُ جوانحه..
كان بالفعل صديق المعلمين «محمد» والمشهور في القرية ب
«زريد»، إذ كانت هواية «محمد» المفضلة حضور الولائم ولعب
دور الطفيلي باقتدار.... أمسكتُ بمعصمه وتحسستُ مجرى
الدم في العروق التي تتمدد على رسغ يده اليسرى..

الحمد لله ما زال على قيد الحياة !

أسرعتُ إلى مقفل الطاجين، بللتُ يدي بماء المطر، فطارت
القبرتان بعيداً بعيداً.. رشحتُ الماء على وجهه، فتنهد «زريد» وشرع
في الأنين وإطلاق سراح الأهات والتألم وصناعة الصيحات...



حوار الصديقين

حملتُ الصديق «محمد» على ظهري، فجسده المجروح كان خفيف الوزن، أدخلتهُ غرفتي المبعثرة، وقطعتُ الخيط الرابط بين «عبد العزيز» ونومه العميق، وكَمْ كانت مفاجئته بادية على محيّاه المجعد جراء اصطدام وجنتيه ببطن الوسادة، فبرّق عينيه نصف النائمتين، ثم بادرني بالسؤال، وقد رفس غطائه كالفرس حين توري النار بسنابكها:

- ماذا وقع لـ «زيد» المسكين؟ ماذا حلّ به؟
- علمي علمك يا «عبد العزيز»، هذا قدره، وما باليد
حيلة..

- سأجلب لك بعض الأدوية، يا «جلال»، تذكرها، أليس كذلك؟

- نعم، هي التي أعطاك إياها صهرك، حين رافقته إلى «طنطان» بحثا عن أغطيتك المجنونة، يا لها من صدفة ...

- أجل، قد تكون صدفة، وقد يكون قدرها أيضا... الأهم هو أن تفي الأدوية بالغرض، وتسهم في اندمال جروح صديقنا «زوريد»، بدلا من نومها العميق في علبة الحذاء الفارغة.

- جزاك الله خيرا يا.. أسرع من فضلك..

وأنا أنتظر «عبد العزيز»، شَلَحْتُ قميص «زوريد»، فاستقبلتني كدمات ارتدت عباءات زرقاء داكنة، وخدوشا احمرّت وتسَلَقْتُ، بلا هوادة، عنقه المتسخ، ثم أطلقت العنان لجذورها، كشجرة العليق، حتى اجتاحت ظهره بالكامل.

رأفتُ لحاله، وبدأتُ في استدراج لسانه الكسول، كي يتحرك ويستفيق من وسنته الحزينة، كنتُ خائفا من سماع الحقيقة، وفي الوقت نفسه راغبا في ترميم ما كسرته الظروف القاسية في جوفه.. فهو الذي تقاسم معنا الحلو والمر، لعب

معنا كرة القدم المصنوعة من الثياب الرثة، علمنا صناعة
الفرن التقليدي بالطين وأوراق التبغ المتناثرة، رافقنا إلى
السوق الأسبوعي غير ما مرّة.. كان همزة وصل بين مراهقتنا
التائهة وشبابنا الذي حلّ بلا إذن ولا ترخيص.. نقرأ دوما في
عيونه الأمل وابتسامته البريئة كانت فانوسا، به نسير في ليل
مستقبلنا المعسوس..

دنوتُ من «زريد» المهموم والمكلوم، بعد أن لفتُ ضمادا
حول عنقه، ودهنتُ جروحه بالدواء المشهور بلونه الأحمر
القاني .. ثم حاولتُ أن أكون رحيما بنفسيته المهزوزة،
فترددتُ كثيرا في طريقة طرح السؤال، كان عليّ أن أعب
دور نحلةٍ تحوم حول نور الشجرة لتجرسها، فيسيل لسانه
كلاما معسولا..

لم تمر إلى دقائق معدودة حتى ألقى عليّ «زريد» كُبته باكيا
متألما، وفرش لي دُخلة أمره وقلبه المسكين يتمزق إرباً إرباً.
حاولتُ أن أسيطر على روعه الذي تمرد، دون جدوى.. لم
تهداً أنفاسه صاعدة هابطة وهو يصف بمرارة عنف أبيه الذي
أناف عن السبعين عاما، وما زال قوية البنية صلدة كالصخر.

طلبتُ منه ألا يقع في فخ الانفعال وأن يسيطر على أعصابه المنفلتة من قبضة الرزاة، شددتُ أصابعه المرتعدة بخفة ورفق، حاولتُ ضمه إلى صدري وإيقاف عبراته المندفعة الغاضبة. كان متهضمًا منهزمًا، ووجهه الخجول تتقاسمه ملامح ضميم وكره وإحساس بالذلة. انقصفت صيحات طفولة كانت جميلة في جوفه، فأمسى راشدا رغم أنفه. هكذا الفتيان في «الدوار» بمجرد ظهور بعض الزغيبات على الذقن وامتداد عظام الساق وارتداء جلابة الصوف ... يغدو الطفل شابا في قبسة زمن.

سألته أولا عن سبب هذه الجروح التي اعتلت جسده النحيف، وبإماعة من رأسه أجاب، فكان الجواب واضحا مفهوما. أطبق فجأة وقال :

- أنا غاضب يا أستاذ! »

- ما الذي استنفج غضبك؟

- أبي الحاج «يا حسرة»...

واسترسل يحكي كيف لفَّ جسده بحبل كان يربط به «الحاج علي» بغله المسن، ودلى به في قاع «النطفية»، حيث

قضى ليلة باردة لم تكن أبدا مثل ليالي أسمهان في فيننيا،
بل أرعب وأوحش كليالي حروب الشتاء في روسيا، كان
معلقا كخفاش بئيس يصارع لهاث الموت، بعد أن أبرحه
ضربا موجعا.

طلبتُ منه أن يشرب نُطفات ماء يبلى بها حنجرتَه
اليابسة، وأن يستلقي على قفاه ناظرا إلى السقف، وأن يكف
عن البكاء، كي أفهم سبب هذا العنف الأبوي الخارج عن
دائرة الإنسانية والمنطق البشري.

- «محمد»، أرجوك، لا تبك، وحاول أن تحكي لي
بالتفصيل ما جرى، كي أساعدك في تخطي الأزمة..
- «سي جلال» والله لا أدري السبب، كل ما جرى، أن «لا
لا مينة»...

- هي زوجة أبيك، أليس كذلك؟...
- نعم، لقد رأيتها من قبل.. حين أصلحتَ جهاز تلفازنا..
- لم أعرها اهتماما، على أي أكمل حديثك..
- المهم، بعد أن سلَّاتِ الزُّبْدَ وحمَّصتْ خبزة يابسة
وأعدت براد شاي مننع، نادتنني بصوت أم حنون،

على غير عاداتها، كي أشاركها وجبة العشاء، نظرتُ إلى
ساعتي اليدوية، تفاجأتُ، فالساعة تشير إلى السادسة
والنصف مساءً، وأبي «الحاج» من عادته أن يتقاسم
معها وجبة العشاء وأشياء أخرى، وجها لوجه.. وأنا
أكون آخر من يلعق شظايا الطعام ويلملم فتات الخبز
المختبئة تحت المائدة الخشبية..

- رضختَ لطلبها؟

- كنتُ، يا صديقي، مضطرا وجائعا..

- جائعا، هذا شيء طبيعي، ولكن لماذا كنتَ مضطرا..

- لسانها سليط يا أستاذ، وأنا أسقى به مرارة العلقم، حين
لا أكون كيّسا معها.

- أكمل..

- جلستُ سجاح وجهها، عينُ ترصد ثوبا لاق بها، كان
ورديا، وعينُ أخرى كانت تترقب باب غرفة النوم..

- لماذا غرفة النوم بالضبط؟

- لأنني أول مرة أرى بابها غير موسد.. رأيتُ أشياء
جميلة، ذكّرتني بصور المجلات التي كنتُ أجدها في
درج مكتب المعلمة «سلوى»... حين كنتُ تلميذا في
الصفّ الثاني.

- كنتَ مشاغبا وفضوليا أيضا يا «محمد»..
- لا، لا والله لم أكن فضوليا ولا مشاغبا..
- ولماذا كنت تفتش في درج مكتب المعلمة؟
- لم أكن أفتش، بل تأمرني بتنظيف مكتبها وبخاصة
الدرج، إذ يكون دائما عامرا قشور ليمون وحبّات
«الزريعة» وصور المجلات و و.. كما كانت تكلفني
بمراقب التلاميذ وتدوين أسماء المشاغبين على ظهر
السبورة...

- وهي ماذا كانت تفعل؟
- كانت دائما تساعد المدير لساعات طويلة..
- في ماذا؟
- لا أعرف، المهم حين تعود إلى الحجرة الدراسية، تكون
في غاية التعب... مسكينة!!!!

- مسكينة.. فعلا، يا «محمد» هي مسكينة وأنتم كنتم
مساكين.. أكمل.. هل تناولت العشاء؟ ولماذا قلتَ عن
لباس زوجة أبيك أنه لائق.. أم تكن دائما أنيقة؟

تنهد «زريد» تنهيدة عميقة، غير مفهومة، كاظما غيظا
منتفضا.. وقال:

- كان أمرها غريبا ليلة البارحة، فقد تزينت وكأن ليلة زفافها بالكاد حلت، لن أنكر أنني سرقت بعض النظرات الخجولة والتي تسلقت جسدها المشوق رغما عن طبيعتي العادية..

- هل من عادتها أن ترتدي هذا اللباس في حضورك؟

- لا، كانت أول مرة..

- ربما لأنها عروس جديدة، يا «محمد».

- لكن، هذه أول مرة أراها متفتحة كزهرة الحميض في

فصل الربيع.

- ماذا وقع بعد ذلك؟

- ما أن شممتُ على ذراعي لتناول الوجبة المشؤومة،

حتى أحسست بيد ثقيلة مرتعشة تحط على كتفي

الأيسر، ومع اللقمة الأولى والأخيرة طبعاً، شعرتُ

بضربة مشذبٍ على كتفي الأيمن، وقفتُ من شدة

الفرع، استدرت بوجهي فإذا بي أصطدم بلقمة كزمت

أنفي فسال دماء..

- من الفاعل؟ أبوك؟

- ومن غيره... والبقية تعرفها.. وضع شكيمة في فمي،

وربطني بحبل و.. و..

- وماذا عن «مينة» أقصد «لا لا مينة»؟

- دخلتُ غرفة النوم، ولم تحرك ساكنا...

- والسبب؟

- لا أدري يا أستاذ، المهم أنني غبتُ فجأة عن الوعي،

ووجدت نفسي في قاع «النظفية» تلامس أصابع رجلي

الماء البارد.. وسمعتُ «الحاج» يقول لها: «لا تبكي يا

عزيزتي، سأمحي ابن الحرام من كناش الحالة المدنية..»

قدح هذا الكلام صدري كثيرا، ودار بي المكان كأنني

في كوكب آخر..

لم أدع «زريد» يشرح المزيد، أدركتُ أن في الأمر حرفا

ناسخا وأن زوجة الأب الفاتنة أمّدت بعنان شيطانها الأسود

يهدم أبراج مستقبل ولد في شَرِّحِ شَبَابِهِ، لم تندمل بعد

جراح فراقه لأمه البيولوجية. فما كان على العريس/الشيخ

إلا أن أهدى «لا لا مينة» هدية شهر العسر، فافتدى بابنه،

الحلقة الأصعب في مسألة الإرث.

وضعتُ يدي على شفّتي «زريد» الذابلتين وأجبرت بوحه

على التوقف وكتمتُ في نفسه حلقات مسلسل درامي، أعلم علم

اليقين تفاصيل حلّقه الأخيرة، كما أعلم ما يدور بخلده تماما.



وظفحت رياح التغيير

ألقيتُ بفكرةٍ جديدةٍ في قاع رأس «زريد» العامر طعنات حارقة، واقتنع بصعوبة بالغة، أنّ الوقت قد حان للبحث عن عمل في المدينة، وهي الفكرة ذاتها التي كانت تزور مدائن إحساسه مذ كان جسمه الضئيل ملفوفاً في وزرة زرقاء داكنة، حاملاً كراس الرياضيات الممزق، تماماً كأحلامه الممزقة على دروب الأمل الضائع.

- يا «محمد»، أعرف جيداً أنك تكنّ المقتّ لوالدك جراء فعلته، لكنه مع ذلك يبقى والدك كيفما كانت الأحوال. عليك أن تنسى قصة «لا لا مينة» ولعبتها الشيطانية المقرفة،

والمشذب وضرباته الموجهة.. الآن، فكر فقط في مستقبلك،
افتح عينيك على مدى الألوان الزاهية ولا تختزل الحياة في
الرمادي المتدرج..

- أستاذي العزيز، قضيتُ معكم أوقات جميلة، تقاسمنا
فيها كل شيء كان غاية في الروعة، عاملتني دوما كأعز
الأصدقاء رغم أنني فقء....

- لا تكملها، الفقر لا علاقة بأحاسيس الإنسان،
وبالصداقة والسعادة والحنان.

- لكن الفقر يفسد هذه الأحاسيس، يقصف بالصداقة
ويعصف بالسعادة ويدهس الحنان!

- قد أتفق معك يا «زريد»، مع ذلك، لا أريدك أن تسقط
في المثل البرازيلي القائل: أسوأ الفقراء من يعتقد أنه
فعلاً فقير..

- وهل تعتقد أنني أعتقد نفسي فقيراً؟

- دعنا من هذا الكلام يا «زريد»، فنهار الفقير طويل كما
يقول الإسبان..

- تُعجبني طريقتك في الكلام وفي الاقناع أيضاً «سي
جلال»، لهذا فقد جئت قاصدا إياك مغمض العينين،

بعد هذه النكبة المؤلمة، كنتُ أعرف أن طيور أبا الحناء ستغرد من جديد بداخلي، حين أرى وجهك البهي .
- الحمد لله، هو قدرك وقدري أيضا، أنا أتت بي رياح الشمال إلى هذه القرية السعيدة، وأنتَ على شفا حفرة من الزوال من هذه الدنيا إلى الأبد.. لو لا لطف الله، لما عرفتك يا «زريد» !

- أه، ذكرتني بهذا الحدث المؤلم الذي غير كثير من ملامح حياتي .. كنتُ سأسافر مع مطلع هذه السنة الدراسية إلى مدينة سطات، عفوا، ضواحيها فقط، لأرعى الأبقار هناك؛ حيث الشمس لا تخجل من نفسها تقترب من رأسك وتلامس بفضول كبير وجنتيك فتستقر على جبينك كي تحرقه حرقا.. المهم، اتفق والدي (الله يسمح ليه) مع السمسار الأصلع على كل شيء، ما زلت أتذكر كيف تمت المساومة بينهما، وكأنني شاة نفّاش ترعى بلا راع. صعدت الشاحنة المشؤمة وعيوني في تيه غريب، تنظر إلى القرية وكأنها ليست هي قرية «إد عيسى»... وما أن تحركت بنا الشاحنة حتى صمت هديرها، وانقلبتُ رأسا على عقب، تركتُ وراءها غبارا يعيق النظر، سمعتُ حينها أنين السائق المخبول بجانبني،

تلتته صيحات النساء اللواتي كنّا يراقبن الحادث عن كثر، فالواحدة منهن تنيع كالعقاب حين يهيم باصطياد سنجاب بائس، لا يمكن لأي لقطة، لأي حدث، لأي مشهد أن يمر دون أن تتعقبه بدقة متناهية. ومنذ ذلك الحادث نارت نفسي من كل شيء واستسلمت لقيود اليأس تسحبني إلى الأرض وتهوي بي، وأنا في قمة العجز والانهزام، وصممت أن أقدح كل هذه الأسرار في جوفي دون أن أتقاسمها مع أي كان.. لكن وقفك التاريخية بجانبني يا أستاذ في تلك اللحظة، ووصولك إلى مسرح الحادث راكبا دراجتك الهوائية البرتقالية اللون، لتقدم لي الإسعافات الأولية، شيء غريب كالسحر ومض في أغواري، ثم أزاح عني كل غيوم الهم التي انتشر في سماء تفكيرتي.

- كان فعلا حادثا لا يُنسى يا «زريد»، أتعرف لقد قررنا في ذلك اليوم بالذات، أنا وعمر وعبد العزيز وسعيد أن نزور صديقينا المنحدرين من مدينة «ميسور» اللذين يعملان بفرعية «إد بوشني»، وفي آخر لحظة تخلفت عن الذهاب رفقتهم بدون سبب مقنع، فقط لم يرق

لي الأمر.. وهكذا ساقني القدر إلى إنقاذ حياتك يا
«محمد»!!

- حمدا لله على كلِّ حال ..

- ما رأيك، إذن، أن نساfer غذا إن شاء الله إلى مدينة
تزنيت، لنبحث عن فرصة عمل من أجلك هناك،
لعلك تخرج من هذه الدائرة المأساوية التي باتت
تخنقك شيئا فشيئا؟

- عزيزي «جلال»، أنا والحظ كخطين متوازيين.. لا نلتقي
أبدا..

استمر السجال بيننا مدة من الزمن، نتجاذب أطراف
الحديث تارة ونفكر في حلول طورا، لقمة زبدة ذائبة مقرونة
بكسرة خبز، فشرية شاي ساخن ثم كلام مباح وهكذا...
حاولنا مليا الخروج من عنق الزجاجة، ضربتُ له الأمثلة تلو
الأخرى، ساعدني صديقي «عمر» الذي ناقش المشكل من
زاوية دينية صرفة كما كان يحلو له دائما، ذكره بقيمة الصبر
في حياة المسلم، مستشهدا بكلام الله، واختار له آية من سورة
آل عمران: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا

اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ. صدق الله العظيم. أما «عبد العزيز» فقد شاركنا الحديث أيضا، لكنه اختار زاوية مغايرة وهي الأدب الروائي الذي يعشقه، فذكره برواية «سر الصبر» لجوستاين غاردر وبالبطل الطفل هانس توماس، 12 عاما، الذي يسافر مع والده الى اليونان لكي يلتحقا بالأم «انيتا» التي هاجرت الى بلاد الفلاسفة قبل سنوات بحثا عن الحقيقة. وبذلك كانت الرحلة الى اليونان، أرض الفلاسفة، هي المحطة المثالية لإعادة اكتشاف الاساطير الانسانية الخالدة..

بقي «زوريد» مشدوها وفمه محلول، يتابع بكثير من الاهتمام ما يخرج من أفواه الأساتذة، حتى طفحت رياح التغيير بقبوله لفكرة السفر والبحث عن عمل ونسيان قدره المحتوم.

عانقه الأساتذة كجندي منتصر، أي نعم، لكنه جندي عاد وقد ندب جسمه. فجأة، انهمرت دموع فرحة يتيمة سكنت مقلتي «زريد» سنوات طويلة. اليوم، سلا همه، ولم تعد السيالة العصبية تحمل رسائل الألم إلى دماغه، وفي رمشة عين سرم خيوط اليأس الذي التفت حوله واشعل فتائل الأمل في جوفه..

في اتجاه «ترنيت»

رَنّ جرس المنبه الأحمر الذي كان نائما بجانب رنة قوية،
فقد كان صادقا ولم ينكث وعده، العقرب أشار فعلا إلى
الرقم ستة. على الفور، أسكتت الرنين المتتالي، لأنني لا
أريد إزعاج أصدقائي الذين قضوا ليلة كغير الليالي، يواسون
«زريد» ويغدقون عليه نصائح، حتى سئم القمر وبان وجهه
الجميل في قلب السماء وسط النجوم المتلألئة.

اخترقت بعض الأشعة الضوئية التي دفع بها فلق الصُّبَّاح
الجميل إلى ساحة المبارزة، زجاج نافذة الغرفة حيث كنا
نائمين أنا و«زريد»، استعنت بهذه الأشعة البيضاء الفتية،
لأرى طريقي إلى المرحاض دون أن أستعمل المصباح الجيبى

أو إذابة ما تبقى من جسد شمعة البارحة. نظرتُ إلى «زريد»، بل تحسستُ، برهفة وحنية، أطرافه الملفوفة في بطانية «عبد العزيز»، وقلتُ مع نفسي: ابييه !!! قدر هذه البطانية أن تسافر إلى مدينة «طنطان» غصبا، ثم تعود من جديد إلى القرية لتشاركنا مواساة «زريد» الجريح..

أخذتُ القربةَ التي أهدانا إياها «العم سعيد» ومزنتها ماء، توضأتُ واصلتُ صلاة الصبح على سجادة مصنوعة من قصب الخيزران .. كانتُ، قبل ذلك، محجوزة في مقطورة الشاحنة التي وقعت في فح الحادث المؤلم، حين تعرفتُ على «زريد» لأول مرة. أحسستُ، فجأة، أنني لم أنقذ فقط هذا المراهق البائس، بل أنقذت السجادة أيضا، وأخرجتها من سجنها الذي كان مؤبدا، وانتشلتها من براثن الغبرة والإهمال، وأعدتُ لها الحياة مجددا، بركعتي وبلبل ماء جبيني وبأدعيتي التي أهمهم بها خمس مرات في اليوم..

فاجأني صوت «زريد» المرتجف، بل أفزعني حقيقة، فقبل أن أنهى صلاتي بثوان معدودات، سمعته، وقد أخذ له مكانا خلفي مباشرة، يقول: «يا ربي إن ابتليتني فاجعلني عبدا

صبوراً وإن أنعمت علي فاجعلني عبداً شكوراً..» استدرتُ
سِجَاحَ وجهه، وقد أضاء وهلاً حبوراً وفرحاً، وبدوري، رسمتُ
ابتسامةً علي وجهي ثم ضممته إلى صدري كطفل شَمَع من
كثرة اللعب يدلُّه أبوه من شدة الشوق والولع.

أخيراً، قررنا السفر في اتجاه «تزنيت» بحثاً عن عمل،
فتحتُ حقيبتي الزرقاء وأخرجتُ قميصاً أسود فيه حمرة،
كنتُ لا أحب ارتدائه، ولا أدري لماذا احتفظت به كل هذه
المدّة!! وخلف باب الغرفة أخذتُ حذاءً مصنوعاً من قماش
«الشاموا»، كعبه متوسط الارتفاع كنتُ سأتلخص منه بعد أن
ودعتُ مدينة الرياح، والآن، أصبح ملكاً لصديقي «زريد»،
فقد جاء حافي القدمين ممزق الثياب..

ودعنا «عمر» و«سعيد» أما «عبد العزيز» فقد كان غارقاً في
نوم جميل، شخيره يتعالى كهدير سيارة «الشاعر». لكن، وفي
غفلة منا جميعاً، سمعنا صوته المخنوق تحت البطانية يهتز..
كان ينادينا بكسل شديد، دلفتُ إليه حيث كان راقداً،
فمدَّ يده وأعطاني ورقتين؛ الأولى نقدية من فئة خمسين
درهما والثانية كانت ورقة عادية منطوية على نفسها لم أعرها

اهتماما. شكرته بالنيابة عن «زريد» الذي كان على عتبة الباب ينتظر الانطلاقة إلى المجهول.

خرجنا وقد كبّدت الشمس السماء وإلى المدينة انطلقنا، كل واحد منا له حسابات خاصة، منا الهارب من واقع متأزم ومنا باحث عن أجر وجزاء عند رب السماوات والأرض.

قطعنا خمسة عشر كيلومترا مشيا على الأقدام، فلا شاحنة ولا سيارة ولا حتى دابة قاسمتنا ذهابنا إلى بلدة «لخصاص».. في كل مرة نقف، لغرضين؛ الأول لنسقط برتقالات التعب من أغصان جسدنا، والثاني لنستدير لعل وعسى أن نرمق وسيلة نقل قادمة من هناك، أو نسمع أزيز دراجة نارية عابرة ذات السبيل نستأنس بها، ونخفف عنا عناء المشي المرهق، والوطء بالقدمين على أحجار مسننة وأشواك حادة...

على الساعة الثانية بعد الزوال، استقللنا سيارة أجرة من بلدة «لخصاص»، جلستُ في الكرسي الأمامي ملتحما مع «زريد» كأكلة «الهامبوركر»، أحسستُ بجسم صغير حديدي يزعجني، كان محتجزا في جيب سروالي، أدخلت يدي بصعوبة، واستللتُ الجسم الغريب كان مفتاحا. ثم شددت رأسي والحسرة تيمس وتسخر مني.

- وضع «زريد» يده على كتفي، وسألني بعفويته المعهودة:
- ماذا بك يا أستاذي العزيز؟ ألم تتعود بعد على ركوب سيارات أجرتنا الفريدة من نوعها واستنشاق دخانها المنعش !!
- لا يا «زريد»، لقد ألفتُ كل شيء في هذه البلاد السعيدة القبيح والجميل ..
- ولماذا تتحسر؟
- أتعرف، لقد أخذتُ معي مفتاح حجرة الدرس التي يعمل بها «سعيد» ..
- وإن يكن، فما المشكلة، ألا يملك نسخة ثانية؟
- لا، هي نسخة واحدة.. وسيضطر إلى إرجاع التلاميذ إلى منازلهم ..
- يا لحظهم الجميل !
- عن أي حظ تتحدث؟ سيحرمون من حصة تعليمية وهي حقهم.
- بل سيفرحون يا أستاذ !!
- وأنا أحاور «زريد» كنتُ أعبتُ بالورقة التي أعطاني إياها

«عبد العزيز»، ولأقتل الروتين الذي تسلل إلى سيارة الأجرة
كضيف ثقيل، فككتُ أطراف الورقة المنطوية على نفسها،
واصطدمت نظراتي بعبارة دوّنها الصديق «عبد العزيز» بخطه
الرديء: تفاءلوا فالهموم مثل الغيوم، ما تراكمت إلا لتمطر
! لم أتم قراءتها حتى ندرت قطرات غيث من السماء، أبت
إلا أن تقاسمنا الرحلة المجنونة. ابتسمتُ وطويت الورقة ثم
أرجعتها إلى جيبى رفقة المفتاح.

بائع السمك

وصلنا كغريبين ضللاً هديتهما، يدا في يد سائرين نخترق
معا زقاق المدينة القديمة، وكأننا نلجها لأول وهلة في حياتنا.
الساعة تشير إلى الثالثة وخمسة وعشرين دقيقة بعد الزوال،
لاحنا الجوع وأضمرنا العطش أيضاً، لكننا نكابد ونمثّل
على بعضنا البعض أننا بخير، في كل مرة نتقاسم ابتسامة
خجولة أو غمزة مصطنعة، والحقيقة أنّ التعب نال منا جراء
رحلة مضنية على متن تلك السيارة ذات الفرامل العجيبة.
ف«زريد» مازالت بعض جروحه المتمردة تسيل دماءً، أكاد
أسمع صرير أنيابه حين يصلدها من شدة الألم، وهو يعرج

برجله اليسرى، تارة يتحسس عنقه برقة، وطورا يحكّ فروة
الرأس لعلّ مهرجان الرقص عند البقّ بدأت فعالياته وقُصّ
شريط الاحتفال .

بادرته سائلا:

- «زريد»، هل تحس بالتعب؟ هل ترغب في أخذ قسط
من الراحة؟

- لا، الوقت يداهمننا، يجب علينا أن نسرع في إيجاد
فرصة عمل كيفما كانت وبأي ثمن كان.. فمصييري
صار على كف عفريت !! وأعتقد أنني لن أجد هذه
الفرصة أبدا.

- لا تدع غربان التشاؤم تحطّ على شرفات الأمل .
- والله، صار لدي اقتناع شبه تام بأن الحياة محزنةٌ جدا...
- أووووه !! يا «زريد» ذكرتني بكلام الفيلسوف المتشائم
« آرثر شوبنهاور » ههه أتعرف ماذا قال ؟

- كيف لي أن أعرف يا أستاذ، لقد غادرت الدراسة وأنا
على مشارف المرحلة الإعدادية !

- لا عليك، المهم أنه قال : إنّ هذه الحياةٌ محزنةٌ جدا،
ولهذا فلقد قررت أن أقضيها بالتأمل فيها.

- بمعنى أنني سأظل أتأمل في الدنيا إلى أن تسرقني المنية
يوماً..

- ألم أقل لك أنك متشائم... تحرك يا «زريد» .. الطريق
أمامنا طويلة والنهار أيضاً..

نسبنا أمر الفيلسوف المتشائم وسرّبنا في حاجتنا، بدأنا
رحلة البحث عن العمل ميدانياً، لم نشرب كأس شاي ولم
نأكل قطعة خبز مدمّغ دسماً أو زيت أركان كما ألفتُ حين
أزور المدينة مع رفاقي، لكن الوضع هنا مختلف، أحسستُ
بالمسؤولية الجسيمة اتجاه صديقي «زريد» المسكين.

تسللنا إلى قلب المدينة القديمة، حيث الحركة دائبة، نتشهُقُ
على المقاهي الشعبية التي تجمع سرّبة رجال خاصمتهم
الحياة الجميلة وثلة شباب منهزم مختبئ في الأركان المعزولة،
نراقب أصحاب الوزر البيضاء وحاملِي صينيات الشاي
وفناجين القهوة السمراء، نتجسّس على صالونات الحلاقة
ونرى هل من ظلّ للحلاق أم لا، نمرّ قرب الفنادق المصنفة
وغير المصنفة، نرمق دكاكين الجزارين وبائعي الملابس البالية
والصناع التقليديين، هل من مساعد هناك أم لا .. نقتفي أثر

من يحمل أمتعة المسافرين وبائعي البيض المسلوق ومناديل
التنظيف و و ...

شدّ «زريد» طرف بذلتي الرياضية وهمس في أذني :

- سي الأستاذ، حظي عاثر مذ أن كنت نطفة، فلا تتعب
نفسك.. لن نجد فرصة عمل لي ولو بحثنا ألف سنة..

لم أبال بكلام مراهق مصدوم، فقد كنتُ أنا من يهمس
في أذنه، بل أجرها جرا كلما أخطأ في صدّ الكرة، حين كنا
نلعب سويا في ساحة المدرسة، كنتُ أنا من ينصحه كلما زاغ
عن الطريق الصائب.. أتذكر يوما فاجأته وهو يستعد لحنق
سجارة بئيسة بين سبابته ووسطاه.. ربسته ربسة على رأسه،
فما كان عليه إلا أن عضّ طرف جلاببه الفستقي وركض في
اتجاه الحقل تاركا وراءه غبارا كثيفا وبلغته الصفراء منقلبة
على وجهها...

كسر صوت بائع أسماك الرنجة اتصّلنا اللاسلكي،
وتسللتُ فكرة كالحمام الزاجل برج أفكارنا معا في نفس
الآن. تبادلتُ النظرات مع «زريد» في هنيهة، وبإمءاء برأسه
أعلن قبوله الفكرة، ثم أسرع في اتجاه دكان البائع، كان

عبارة عن «كشك» صغير يحوم حوله جيش من الذباب،
الذَّلف منه يصارع دخان الشواء ببسالة وي طرح الميكروبات
ببراعة، أما ذوي الحظوظ العائرة فيصطدمون بذيول المنشئة
التي لا تفارق يد البائع. أقبلتُ عليه بخطى واثقة، واضعا
مرفقي يدي معا على (الكنطوار) المصنوع من القصدير،
مثبتا ذقني براحتي يدي الاثنتين. قبل أن أسأله بادرني هو
بالسؤال وبكثير من اللباقة قال:

- سلام الله عليك يا سيدي، تفضل بالجلوس (أش حب

الخاطر؟) أتريد السمك مشويا أم مقلّيا؟

- في الحقيقة، أريد أن ... لحظة ... طبعاً سأختار ... لكن

قبل ذلك ... !!!

- ماذا بك يا سيدي؟ لماذا أنت مرتبك هكذا، لا تقل لي

أنك لا تملك نقودا، لقد سئمت من هذه الألاعيب ...

- سي ... ما اسمك؟

- «الحسين»

- «سي الحسين»، أنا فعلا جائع وأود تناول سمك الرنجة

اللذيذ، وتأكد أنني رجل محترم، فأنا «معلم» يا أخي!

انكفأت ملامح «الحسين» في لحظة وجيزة، ووضع المنشئة جانبا، مسح صندوق خضر بلاستيكي بمنديله الأسود الذي يضعه دوما على كتفه، وطلب مني الجلوس بكياسة وظرافة أهل الجنوب. وقبل ذلك طلب مني السماح.. ولم أكن أدري أنّ مكانة «المعلم» في هذه البقعة من خريطة المغرب، لاتزال تحتفظ ببريقها وقيمتها..

استقبلت رثاي كريات أكسجين كثيرة العدد دفعة واحدة، وطال شهيقني وتبعه زفيرني، ثم أسلمتُ جسدي إلى صندوق الخضر المهترئ، ناديتُ «زريد» الذي بقي متكأ على عمود كهربائي وهو يراقب صبي ميكانيكي وقد مهّنه مشغله أمام الملا بدون رحمة ولا شفقة.

اقترب وجلس بصعوبة بجانبني ثم قال :

- من يرى هم الآخرين تهون عنه نفسه يا أستاذ، لقد وضعتُ نفسي مكان هذا الصبي فأحسست بجرح عميق يشرخ دواخلي...

- هوّن عليك يا «زريد»، لقد ذكرتني بأستاذ درّسنا اللغة الإنجليزية حين كنت بالمرحلة الثانوية، كتب على السبورة

مقولة وحفظتها عن ظهر قلب مفادها؛ دائما ضع نفسك في مكان الاخرين وإذا شعرت بأن الأمر يجرحك فإنه حتما سيجرح الشخص الآخر أيضا..

Always put yourself in the other's shoes. If you feel that it hurts you, it probably hurts the person too.

- يا سلام، كم هو جميل أن تتعلم اللغات الأجنبية !!!
- المشكلة يا صديقي «زريد» أننا نتعلم لغات مختلفة في المدرسة وحين نخرج إلى سوق الشغل أو حتى في حياتنا اليومية ننسى كل شيء.. ونصبح بعد عام واحد أميين وظيفيين ههه... دعنا من هذا الكلام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، واغسل يديك سننقض على السمك المشوي كطائر العقاب الجائع...

طلبت من «الحسين» أن يعد طبق السمك المشوي، واغتنمتُ الفرصة لأحدثه عن «زريد»، ورغبته أن يحقق لي أمنيتي ويشغله مساعدا في «كشكه». مصمص «الحسين» شاربه الأشقر، وحك فروة الرأس حتى مالت قبعته البيضاء الملطخة مرقا، لعب بحاجبيه أرجوحة التفكير في الأمر، ثم قال بكثير من التأفف:

- يا سيدي المحترم، أنا بائع جد متواضع، أقتني بعض
كيلوغرامات من السمك، وعندما أنهى عملي، أثنى
عائدا إلى كوخ المتواري خلف الفيلات الفاخرة هناك
خارج المدينة.. ولا حاجة لي في صبي ولا مساعد..

- «سي الحسين» يقول شاعر أفغاني يدعى «أبو الفتح
البيستي»:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

*** فطالما استعبد الإنسان إحسان،

وإن أساء مسيء فليكن لك في

*** عروض زلته صفح وغفران،

وكن على الدهر معواناً لذي أملٍ

*** يرجو نذاك فإن الحر معوان.

- كلام جميل، يا أستاذ، والله لأغامرن وأشغل هذا
الفتى المسكين، لكن، دعني أخبرك شيئا مهما، حالتي
المادية ميؤوس منها، وأعيش من رزق هذه الأسماك
التي تنتحر من أجلي.. حتى أنني لازلت بعيدا عن
تحقيق أمنية والدتي رحمها الله..

- أي أمنية يا رجل؟

- الزواج يا أستاذ! مع ذلك سأعطيه خمسة دراهم يوميا
مقابل خدمته المزيفة..

- فقط؟؟

- نعم، هذا ما أستطيع منحه إياه كأجر..

نظر إلي «زريد» وقد لصقت مؤخرته بكرسي خشبي
مهشم نصفه، أرسلتُ إليه إشارات مصنوعة من إحساساتي
المتدمرة.. لكنه أماء مجددا برأسه، إنه موافق.

الحمد لله، رغم أن الخمسة دراهم كأجر مياوم ضئيلة
ومجهريّةٌ جدا في زمن المغريات، إلا أن هذا الوضع أرحم
بكثير من مصير، قاب قوسين أو أدنى، من أن يعصف بأوراق
مستقبل «زريد».

أعد «الحسين» طبق السمك المشوي في ملح البصر،
شممتُ الرائحة الجميلة فأحسستُ بأهازيج الشهية تطربني،
شمرت على ذراعي ودخلتُ الميدان أقضم السمكة على
أنغام (الرايس محمد الدمسيري) التي تنفّلت بصعوبة من
ثقوب مذياع «الحسين». لكن «زريد» فاجأني، حيث بقي

جالسا متمسرا في مكانه. حرّكته بمرفقي، فيدي عامرة شظايا
جسد السمكة اللذيذة، وسألته:

- «زريد» ألا تستهويك رائحة الشواء، أم أن فرحة الوظيفة
الجديدة طردت شهيتك.

- إنني لا أكل السمك إطلاقا!!!

وضعتُ لقمتي التي حكمتُ عليها، للتو، بالسجن في
معدتي، واستأذنتُ من «الحسين» نصف ساعة كي نتناول
وجبة من نوع آخر ونعود بعدها، فعصافير الجوع صارت أكثر
تمردًا تجوب شوارع معدة «زريد» والتي باتت ترقص على
نغمات موسيقى صامتة، رغم أنّ أغاني (الدمسيري) هزّت
أرجاء المكان.

غيرنا المكان وغيرنا أيضا طريقة الجلسة، بدلنا أكلة السمك
بشواء مُرشٍ من لحم الماعز، وبدلنا أيضا ملامح مصير إنسان..
عدنا في الموعد المحدد نلحس أطراف أصابعنا، رمى «زريد»
ببصره اتجاه الكشك فبقي في مكانه كتمثال الحرية، بينما أنا
أقضي حاجتي في العراء بكل حرية، إذ لا توجد مراحيض
عمومية بالمدينة القديمة.

علمتُ أن توقف «زريد» عن المشي لم يكن طبيعياً،
ولمحتُ باب كشك «الحسين» مرتجاً، فانكسرتُ أحلام
المراهق المكلوم ومعها آمالي أيضاً. لم يبق في المكان سوى
رائحة الشوى تعطره، ورؤوس أسماك بئيسة وفتات خبز
متناثر وأعمدة فقرية منكسرة يحوم حولها الذباب الجائع
المتلهف للاحتفال بميلاد جرائم جديدة.

صفعة موجعة، لكن وجعها أقل بكثير من صفعة أب هرم
تخبط خيوط أعصابه في دماغه وفقدتها بالكامل.

نظر إليّ «زريد» شزراً وكأنني أنا السبب، لم أكثرت له
ورأفت بحاله، وللتخفيف أكثر من حدة استيائه، طرحت
عليه فكرة التجوال بالمدينة القديمة، ونسيان موضوع الشغل،
وكاننا سائحين فقط.

أحبّ الفكرة، وتخلص من جزعه وصار صبورا قنوعا.



الساندريلو المحجبة

سَحْنَا فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ الْهَادِئَةِ وَطَوِينَا صَفْحَةَ مِنْ
صَفْحَاتِ قِصَّةِ بَائِعِ السَّمَكِ، نَسِيرٌ فِي اتِّجَاهِ لَا نَعْرِفُهُ، يَبِشُّ
الْوَاحِدَ مِنَّا حِينَا وَيَعْبَسُ حِينَا آخَرَ.. نَدَاوِي جُرُوحِ الْحَسْرَةِ
بِنَكْتَةِ فَبْسَمَةِ ثُمَّ ضِحْكَةِ وَضِحْكَتَانِ.. أَهْ، لَقَدْ تَبَخَّرَتْ فِرْصَةُ
الْعَمَلِ وَضَاعَتْ أَجْرَةَ بَقِيْمَةِ خَمْسَةِ دِرَاهِمٍ كَانَتْ سَتْسُدُّ بَابَ
الْفَاقَةِ وَقَلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ، لَكِنْ رَغْمَ ذَلِكَ، رَمَى «زَرِيدٌ» هَمَّهُ عَلَى
هَامِشِ الطَّرِيقِ حَيْثُ النِّفَايَاتُ تَجْتَمِعُ فِي «كَرْنِفَالٍ» بِرَوَائِحِ
تَزْكُمُ الْأَنْوْفَ الْبَشْرِيَّةَ.

لم نكن ندرى أننا سنصادف فتاة من فتيات هذه المدينة الجميلة المشهورة بحياء نون نسوتها. فتاةٌ محجبة ترتدي فستاناً أحمر وهاجا، مُنيفةً مشوقةً القَد، تقاسيم وجهها الفتية والفتاة تجلجك خارج التغطية، تسحبك برقة ريشة الفنان فتُطيل النظر رغما عن أنفك في سفر سرمدي بديع لا نهاية له، يحملك جماله الأخاذ كما تحمل رياح الخريف أوراق التوت المتساقطة.. وجهها البهي، المحجوب بوشاح أرجواني اللون، يرسل الأنوار فيغدو الواحد منا كفراشات الصقلاب يتراقص حولها بوعي غائب وعقل خبله الجمال الرباني.

كانت الفتاة ماضية سبيلها غير أبهة بمن يتعقب خطواتها السريعة. ثَمَغَتِ الألوان على أديم وجه «زريد» ودنا مني قائلاً:

- إنني أعشق هذا النوع من الفتيات المحجبات يا أستاذ...

قال ذلك بقليل من الخجل على غير العادة، وانبلج صبح يومه المكسوف. لم أكن أتخيل يوماً أن «زريد» الجريح والمكلم والمصدوم واليائس.. سيتحول إلى عاشق ولهان في لمح البصر.. كنتُ مجبراً على مجاراته، وفي ذات الآن، كنتُ أتوق لمشاركته

لعبة المطاردة التي ذكرتني بأيام المرحلة الثانوية...

- فلنتبعها يا «زريد».. نهار الفقير طويل هههه

- أجل هو كذلك..

- ما الذي نال إعجابك في هذه السندريلا الصغيرة؟

- الحجاب !

- فقط؟ وماذا لو أزالَتْ هذا الوشاح من على رأسها؟

- حينها لن أفكر في مطاردتها..

- أللحجاب إذن تأثير على نفسيتك؟ هل له معنى ما؟

- هو يدل على العفاف والتربية الحسنة...

- ليس دائما يا «زريد».. على أي دعنا نستمتع بهذه

الطُرْفَة المجنونة.. إنك رفيق جميل.. والله !

خطوة خطوة نراقبها ونتعقبها ثم نلازمها كظل فلا نفارقها

البتّة، من الشارع الكبير إلى مجمع الصنّاع التقليديين ثم

إلى سوق الخضر مروراً بمحاذاة سينما «الريف» في اتجاه زقاق

ضيق في قلب المدينة القديمة، كنا معها بل وراءها، شيء

أفرحنا وأخرجنا معا من دوامة التفكير الممل في مستقبل

باتت تلعب به الأقدار ككرة منبودة.

على الفور، أسبلت مشاعر «زريد» بعد جفاف مقفر، يغدق عليها شعرا أمازيغيا لذيذا كان مخزونا في علبته السوداء، وقد زينت الابتسامة وجهه العبوس.. نجح في انتشال ضحكاتها متتالية مني بعباراته المرتجلة وأشعاره المختارة من (ريبرطوار) الروايس القدامى.. استطاع أيضا أن يشنف أذن السندريلا، وأن يحرك رأسها يمنة ويسرى على إيقاع الأغاني التي يرددها «زريد» استلها من عقب التراث المغروس في تربة جنوب المغرب.

وما كان عليّ سوى أن أجاريه في لعبته التي فضلها عن البحث المضني عن فرصة العمل... لحقنا بها وأنشأنا ننظم معا شعرا أمازيغيا على مسامعها، وبين الفينة والأخرى تستوقفنا ضحكةً وغمزة.

فجأة غابت عن الأنظار... وعادت الكأبة تفرش أشواكا في جوف «زريد» المسكين، نظر إلي مجددا نظرة بمعان مختلطة، كان يود قول شيء ما، لكنه سكت. ومن حسن حظّه أن الفتاة قادتنا إلى محل لبيع الأواني البلاستيكية. شدته من معصمه وتألّم قليلا حتى صاح، لكنني لم أتمالك نفسي ولم أكن لأبالي بألمه، لأن مستقبله صار أمامي واضح المعالم.

بلغة مغايرة ونبرة مختلفة عاد يحدثني عن الحظ والقدر
و«الرزق»، كما لو أن غياب السندريلا أيقظ خفافيش
التشاؤم من جديد في أغواره. قطّب وجهه وقال :

- سي جلال، نشوتي كحلوى (غزل البنات) لا تكاد
تلحسها حتى تذوب بين يديك في رمشة العين، وحظي
عائر بلا جدال ولا نقاش .

- كلّ هذه الأحزان جثمت على نفسك مجددا يا «زريد»،
لأن الفتاة انفلتت من قبضة عصيات عيوننا، فزهقَ
سهمنا ولم نصطد شيئا؟

أرسل بنظره الحزين إلى الأرض، وأطبق ساكتا، لم أكن
أعلم أن فرحته ستُغتال في مهدها بهذه الطريقة الدرامية،
لكنني استبشرتُ خيرا، حين رمقتُ المحل التجاري الكبير
على بعد خطوتين مني ومنه أيضا.



الشيخ..

تركتُ «زريد» واقفا على مرمى حجر مني، وأذابتُ في السير متقدما بخطى متفائلة نحو الشيخ ذي اللحية الكثّة وهو يستعد لإقفال محله التجاري، كان رجلا ودودا، تفاصيل وجهه تحكي عن تجارب عديدة في علم الحياة الذي يُدرس في فصل يدعى «الزمن»، والتجاعيد المرسومة بانحناءات هندسية وانكسارات شديدة الانحدار كانت شهادة الدكتوراه، التي توج بها مساره الشاق في حياته المليئة قصصا ليست كالقصص العادية إطلاقا. الآن صار ظهره مقوسا بعد أن حمل أكياس ملح ورمل وصناديق ليمون

وتفاح في باب السويقة.. صورته بالأبيض والأسود المعلقة على باب المحل تحكي عن كل شيء بعبقريّة عدسة المصور الإسباني في أربعينيات القرن الفائت، ترى اليوم هذا الشيخ وقد فقد كثيرا من هالته وهامته.. لكنك حين تدقق النظر في قامته وبنية جسده يصلُك انطباعٌ خاص؛ أنه كان طويلا قوي العضلات إبان ربيع شبابه.

الشيخ المبجل كان يحمل سُبحة خضراء في يده المرتعدة، ورزمة مفاتيح في يده الأخرى، ينتعل بلغة صفراء ويرتدي بُرّنا أبيض يعكس تماما بياض قلبه.. كان قد برّصَ للتو رأسه، فلا زغبية واحدة تختلس النظر من خلال ثقب طاقيته المزركشة والتي اختلطت فيها الألوان الساخنة بالباردة..

في الحقيقة، لم يخبُ ظني في هذا الشيخ الورع، فما أن اقتربتُ منه حتى استقبلني رائحة المسك الفواحة، وأرسل إلي بابتسامة راققة شائقة، جعلتني ألقى التحية بكثير من التقدير والاحترام.

- السلام عليكم يا سيدي الفاضل ..

- عليكم السلام والرحمة والإكرام يا بني .. يبدو أنك

تريد اقتناء بعض الأغراض.. أعذرني فأنا أعلق باب
المحل التجاري باكرا.. قبيل الغروب ببضع دقائق.. ههه
لقد هرمتُ..

- لا، يا سيدي، بل أريد أن أتشاور معك في موضوع ما..
- تفضل بالجلوس يا بني، سأعد كأس شاي فورا..

قاطعُ الحوار بلباقة، وأخبرته أنني لا أريد شايًا ولا خبزًا،
وأنتي ممتن لكرم الضيافة التي أعرفها معرفة عميقة.. حدثته
عن «زريد» وعن قصته المؤلمة والغريبة في ذات الآن..

لم يتردد هذا الشيخ الطيب في تقديم المساعدة، ما أن
أتممت الحكى حتى وضع السبحة على منضدة الدكان، وجرّ
كرسيًا بلاستيكيًا وأسلم جسده إليه، متأسفًا وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..
أما زال في الدنيا آباء بل أوباش بهذه القسوة!؟

- أجل سيدي الفاضل، لقد حتم عليه بالطرده نزولًا عند
رغبة تلك «الحية» المسمومة...

أطال إلي النظر هنيهة وعقف سبابته مساعدًا بإهامه ليفك

أزرار قميص متواري خلف برنسه حتى كاد فلذها فلذا من
شدة التوتر، ثم أمال رأسه قليلا كي يلمح «زريد» الواقف هناك
قرب باب منزله.. كمّش الشيخ عينيه وجمع حاجبيه واضع
يده المرتعدة على جبينه كسقيفة يظلل بها، ويجبس بها شفق
الشمس التي تلوح بأشعتها مودعة صفحة السماء.

سعل الشيخ ومسح قطرات لعاب لصقت بشفته السفلى
بمנדيل بنيّ، وقال :

- بما أنك يا أستاذ لست من أبناء المنطقة، وسأقتك
الأقدار إلينا، وليست لك قرابة مع هذا الولد المسكين،
وغرضك شريف.. فقد كبرتُ في نظري، وسأشغله معي
محاسبا، فمن حسن حظه أنني طردت اليوم محتالا
كان يعمل معي مدة عشر سنوات.. واكتشفت أنه لصّ
وخائن ولا يستحق الرحمة..

- بارك الله فيكم أيها الرجل الطيب..

- سأكافئه بألف درهم للشهر، وإن هزرتُ غصن شجرة
الأرباح وندرت منه الثمار.. سأضاعف له الأجر
مرتين.. أتفهم يا أستاذ؟

بهذا التعبير الجميل للشيخ الذي صال وجال في مناكب الدنيا، أنهينا الحوار الجميل، مصدقين على عهد جديد للولد الجريح.. فما كان على «زريد» إلا أن قفز قفزتين متتاليتين كأنه لاعب سجّل هدف الخلاص في الثواني الميته من المباراة. ثم توجه حيث كنا جالسين أنا والشيخ وأرخّ عليه الثناء العظيم، وانكب على يد الشيخ راغبا في تقبيلها، فسحبها منه احتراماً وقال:

- أستغفر الله يا بني.. أستغفر الله يا بني..

فشرع في تتممة دعاء بصوته المرتجف الجميل: يا مهيمن يا مقتدر نسألك عفة الغنى، هبّ لنا عفة في قلوبنا، حتى لا تشتهي شيئاً غير ما قسمته لنا، وعفة في أعيننا، حتى لا تتطلع إلى ما لم تقدره لنا، وعفة في قلوبنا حتى لا تشغل...

فاقت طيبوبة الشيخ الحدود الطبيعية، ودعانا لقضاء الليلة في منزله الذي لا يبعد عن المحل التجاري إلا بضعة أمتار. حاولتُ أنا و«زريد» أن نلعب دور الراشدين، ورفضنا الدعوة رفضاً كاذباً يثوي خلفه رغبة جامحة في دعوة الشيخ السخي.. ما أن قبلنا الدعوة حتى سحّت السماء مطراًها، فقال الشيخ:

- حظكما معا سعيد.. وقدومكما مبارك إن شاء الله..

دلفنا الباب الحديدي المزخرف رفقة الشيخ، وعيوننا قد تجردت من الخجل وامتطتُ فرس الفضول، فراحت تضرم راكضة متسلقة نواحي المنزل الفاخر، كان آية في الجمال والهندسة، أثنائه يجمع بين الأصالة الجميلة والمعاصرة المدهشة.. ساعة حائطية من خشب العرعار في الواجهة تستقبلك وأنت تصعد الدرج، ولوحات فنية منقوشة بالجبص تتوزع بحنكة الفنان التشكيلي على الجدران، ثريا تفتح أذرعها الأخطبوطية مكبله بمصاييح وهاجة تتوسط سقفوف الغرف الواسعة، وقبضان الستائر نحاسية حمراء براقه، أما أربطة قماشها فمن حرير سندس ناعم، والمفارش مصنوعة من ثوب (الأورغانزا) الساحر، كانت زاهية الألوان كما الوسائد متراسة مزهوة بصقيل مذهب، تجلس فتستريح على كنبه جميلة أمامها سنادة للأرجل..

ونحن نأخذ قسطنا من الراحة التي كنا في ميسس الحاجة لها في ذاك المنزل الفاخر، فاجأتنا الفتاة التي كنا قبل قليل نطاردها بالكلام المعسول، وهي تحمل في طبق فضي أرزا بقطع اللحم المشوية، قادمة إلى البهو حيث كنا جلوسا. دبّ الخوف في جسدي، حين ناداها الشيخ:

- ابنتي «صفية» عجلي بالعشاء...

وتزايدت حدة الهلع حين أجابت بصوت أنثوي رقيق
رقة أحاسيسها الجميلة:

- حاضر أبي، أنا قادمة !

علمنا بما لا يحتمل الشك أنها ابنة الشيخ، فنظر إلي
«زريد» ثم همس في أذني:

- إنها الفتاة نفسها، هذا القوم لا يعرف التفاهم في مثل
هذه الأمور، إن علم والدها بالأمر، فاستعد لطلقة نارية
من بندقته المعلقة هناك. وهو يشير بشفتيه المملختين
عسلا وزيت «أركان» إلى زاوية من الغرفة الكبيرة حيث
البندقية فعلا كانت تنظرُ إلينا عبر فوهتها.

عادت غربان التشاؤم تحوم حولنا، فكرتُ مليا أن أصارح
الشيخ بما جرى، وأن أخلي مسؤوليتي أمامه وأمام الله، فنحت
من شرب الشاي الأخضر الساخن، واقتربت نحو الشيخ
حيث كان جاسا قرب نافذة البهو، وفي اللحظة التي قررتُ
كسر حاجز الصمت وإطلاق سراح السر المدفون، بادرنى هو
بكلام خلط به الأوراق:

- من عادتنا ألا تقوم النسوة بخدمة الضيوف، لكن زهرة قلبي «صفية» ربيتها تربية حسنة باعتدال وبما يرضي الله، لست متعصبا حتى الجهالة، ولستُ لينا حتى الميوعة..

ما أن أنهى كلامه حتى عدلت عن فكرتي، وأسلمت ظهري للوسادة المكسوة ثوب (الدونتيل) الرطب. وعرجنا بالكلام إلى أمور ثانوية لسد الفراغات التي دبت في حواراتنا في تلك الليلة الماطرة الطويلة.

مرت الأمور بسلام، ولم تخبر البنت أباهما فكان ذاك هو المراد.

50 درهما و 113

وانبلج صبح يوم جديد، كنتُ أول من فتح عينيه لاستقبال
أشعة الشمس المتسللة من بين ثنايا الستائر العنّابية اللون،
في ذاك البهو الفسيح الذي يُنسيك أنك في مدينة صغيرة
قابعة في جنوب المغرب. بهوٌ ساحر بكل ما تحمله الكلمة من
معنى. قضينا فيه أنا و«زريد» ليلة دافئة بعقب القرنفل وأريج
المسك وبخور الهندي الملكي ونفحات الكافور الأزرق.. أه
من ليلة كانت طويلة جدا شهدت عقد قران الحلم البائس
بإشراقه الأمل!

وضعتُ كلتا يدي تحت القفا متأملاً النقوش المتراسة والمنسابة
على جنبات السقف، أوحَتْ إلي بكل ما جرى بيني وبين «زريد»،
ذكرتني بمنزل عائلتي بضواحي مراكش وأشياء أخرى محفورة
في الذاكرة كانت كلها حاضرة نصب عيني، بتفاصيل متناظرة
ومتشابكة منها المتشابهة ومنها المتنافرة.

سمعتُ لجلجة خلخال تلاها صوت حذاء امرأة، ينبعثُ
من قلب الرواق الذي يشرم غرف المنزل، فطنتُ للأمر
وعلمتُ أن أهل الدار قد شرعوا في استقبال يوم جديد،
طويتُ البطانية القرمزية في رمشة عين، ونظرتُ إلى «زريد»
وجدته منكمشا في بطانية سميكة دافئة ذات نقوش رائعة
ورسوم «أربسكية» أخاذة.. وقلتُ مع نفسي: البارحة فقط
زملنا جسدك المجروح يا «زريد» ببطانية من الدرجة الثالثة
ذي جودة متدنية وبدون أي علامة تجارية، مليئة ثقوبا تفنن
في صنعها «عبد العزيز» مستعينا بنترات سجارته البئيسة.

حركته بكلتا يدي وتبرتُ شخيرته المتعالي واضعا نهاية
لأحلامه التي زارته للتو كالسحائب الرقاق البيض حين
تزور صفحة السماء قُبيلَ بداية فصل الصيف، نجحتُ في
إيقاظه وقلتُ له:

- «زريد» عليك أن تستعد وتوضي وجهك الأشبه بلعبة
«الأرجوز» بقليل من الماء، لقد استيقظ أهل الدار، ومن
العيب أن نظل نائمين هكذا ..

- إنا ضيوف يا أستاذ، والضيف يكرم تكريماً خاصاً، وفي
ثقافتنا الشعبية يغدو كالملك ..

- عزيزي «زريد» ذكرتني برجل يدعى (ادغار واطسون
هوي) أتعرف ماذا قال؟

- ماذا قال هذا الرجل الذي لا أعرفه يا أستاذ؟

- لتكون ضيفاً مثالياً، ابق في منزلك .

رنا «زريد» إلى حديثي في صمتٍ مستفز، ولم يجبني، هل
كان يعرف الجواب؟ هل أدرك فحوى القولة؟ هل كان يفكر
في (إدغار) الذي لا يعرفه؟ هل كان يفكر في «الحاج»؟ في
المشذب أم في «بائع السمك»؟ أو يفكر في انفلاته من قضبة
أجرة مجهرية تُقدَّر الخمسة دراهم؟.... لا أدري !!

على الساعة الثامنة صباحاً، دق «الشيخ» باب البهو
دقات خفيفة، سبقته رائحة المسك كالعادة، فدخلت بلا
إذن ولا ترخيص من فتحة المزلج الفضي... ثم فتح
الباب المزين بزجاجات مختلفة الألوان، ووجدنا جالسين

مستقيمين كتلميذين مهذين ينتظران دخول المعلم. ألقى التحية بلباقته المعروفة المقطوفة أزهارها من حدائق شيم أخلاق آل الجنوب، ثم زلج كلاما من فمه كان عبارة عن تعابير تليق بالضيف العزيز استمدها من معاجم حدوده الأفاضل وجداته الفضليات. نولنا فوطتين قطنيتين وإناءين نحاسيين بهما ماء فاتر قصد الوضوء.. شكرته بالنيابة عن «زريد» الذي كان منهمكا في تسريح شعره الأشعث، وهو يقابل مرآة منزوية في ركن من أركان البهو الفسيح.. هل كان يفكر في «لا لا مينة»؟ هل كان يفكر في «صفية»؟ الله أعلم !

صلينا في هدوء جميل لا تسمع إلا دقات عقارب الساعة الحائطية تلازم عبارات «الله أكبر» و«سمع الله لمن حمده» في تناغم وانسجام، نضع الجبين برحاء واسترخاء على سجادة من الوبر المرمار.. هي طقوس تجعل قلبك يغرق في يم من الخشوع المستتر المتماذي في أغوارك، تقرأ القرآن في السر فيرجع صده في جوفك كأنه بالجهر.. تستمتع بلذة الصلاة وبحركات السجود والركوع حتى تكاد تسمع فرقعة عظمة الرضفة وطققة الكعبرة..

تناولنا وجبة فطور رائعة ومتنوعة، تحلقنا حول طاولة
منقوشة غُرس في قلبها وجوانبها قطع الليمون الجاف بحرفية
الصانع المغربي البارِع.. الوجبة مغرية فعلا، بجانبك خبز
لذيذ حين تكسره تتصاعد أدخنة برائحة القمح واليزير
(اكليل الجبل)، وأمامك زُليفات من الفخار الرمادي الجميل
الصنع، سطحها لامع أملس تتلأأ ببطنها زيت الزيتون
والأركان والزبد الذائب وعسل السدر ونواره البرسيم، وعلى
اليسار إبريق حليب طازج تحوم حوله أكواب من الزجاج
الرصاصي الكريستالي، وعلى اليمين براد شاي يقف بتبختر
كبير يتوسط صينية فضية براقّة كأنه الزعيم، تحيط به حبات
الشاي الأخضر، ووريقات النعناع المدبب كأنها جوارى
السلطان...

الكل استمتع بالوجبة اللذيذة، مسح «الشيخ» يديه
المرتعدتين المدهونتين زيتا وأشار إلي بسبابته قائلا:

- «سي جلال» اعلم أنّ لك أجرا كبيرا عند الله.. فلولا
أنك كنتَ السبب لما وجد هذا الولد فرصة للعمل.. ما
اسمه؟ والله نسيت أن أسأل عن اسمه.

- اسمه «محمد» لكن أصدقائه يلقبونه «زريد»، هههه
- وتضحك أيضا يا «سي جلال» ! أنا لا أحب أن أناز
بالألقاب.

- سيدي الفاضل، هذا مجرد لقب لا غير.
- ولو، أتم يا شباب اليوم تغلفون كل شيء بأغلفة من
صنعكم لتبدو كما تريدون أتم وكما تشتتهون.. لكن،
يشفع لك ما قمت به اتجاه «محمد».

- يا سيدي الفاضل، ما قمتُ به جاء هكذا بالصدفة
فقط..

- هذا ما نسميه نحن «رزقا»، أنتَ معلم، ولا شك أنك
تحفظ بعد الأبيات الشعرية عن الرزق؟ إنني أحب
الشعر الجميل الراقى...

- جميل، سأقول لك بعض الأبيات من شعر الشريف
الرضي:

لا تطلب الرزق في الدنيا بمنقصةٍ ×× فالرزق بالذل خير
منه حرمانُ

المال يمضي وتبقى بعده أبداً** على الفتى منه أوساخ وأدرانُ.

هنأني «الشيخ» بحرارة حرارة اللقاء الذي جمعنا، وحلوا
حلاوة الوداع الذي ودعتُ به صديقي «زريد».

خرجتُ من المنزل الدافئ بدموع دافئة أيضا بللت رموش
عيني.. خطوتُ خمس خطوات ثم استدرت ولوحتُ بيدي
في اتجاه النافذة حيث «زريد» كان ينظر بترقب كبير وحيرة
مزوجة بفرحة غامضة، أرسلتُ بنظري صوب الباب حيث
«الشيخ» يسند جسده بعكازة مزخرفة وأطلق ابتسامة عريضة
ذكرتني بابتسامة «سي مبارك»، فتذكرت المدرسة والتلاميذ
وباقى الرفاق، وهرعتُ إلى المحطة لأستقلّ سيارة الأجرة
الكبيرة، إذ أن حصتي المدرسية تبدأ مع الثانية بعد الزوال..

في طريقي إلى المحطة القريبة من منزل «الشيخ»، أنشأت
أتحسس جيب سروالي فحمدتُ الله أن المفتاح مازال وفيها
مكانه، فكرتُ في الفرعية المدرسية فكرتُ في درس النشاط
العلمي الذي لم أحضره بعد، فكرتُ في شراء الحليب المجفف
الذي ألحّ علي «عمر» ألا أنساه، فكرتُ في «سعيد» كيف
سيدبر أمر التلاميذ الأبرياء.. لم تدعني صيحات (الكروتي)
أكمل ترتيب أفكاري فقد كان ينادي بصوت عال:

- مكان واحد شاغر في اتجاه «الخصاص» .. مكان واحد فقط ..

ارتيمتُ في الكرسي الخلفي مزاحما رجلا مسنا.. فجأة
تذكرتُ الورقة النقدية التي أهداها «عبد العزيز» لصديقنا
«زريد» كنببتها في جوربي .. لم أتوان في إخراج هذه الورقة
الخضراء المجددة، وتحسرتُ كثيرا.

فكرتُ مليا، وقبل أن يهيم (الكورتي) بلملمة القطع
النقدية من المسافرين، طلبتُ منه أن يمهني بضع دقائق
أقضي حاجة ثم أعود. بسر السائق وقصّب (الكورتي)
تقاسيم وجهه المنكسرة وقال:

- أسرع من فضلك، فلا وقت لدينا...

- صبرا يا أخي، فالصبر جميل ..

- لا نريد مواعظ يا أستاذ، عجل فنحن نصارع الوقت ..
أما أنت وأمثالك فأجرتك محفوظة ومضمونة .. كل شهر
تأتيك على طبق من ذهب.

- وما الذي منعك يا سيدي من أن تصبح مثلي .. ستقول
لي «أرزاق» أليس كذلك !

تركته ورائي يلوك كلاما غير مفهوم.. وأثنيْتُ عائداً إلى منزل «الشيخ»... وجدته في المحل التجاري يعلم «زريد» المبادئ الأولى في علم التجارة.. استغربا لعودتي، وحين مددت يدي مانحا «زريد» خمسين درهما، عانقني حتى حبس أنفاسي.. وما كان على «الشيخ» إلا أن صافحني قائلاً: المؤمن كالنحلة تأكل طيبا وتضع طيبا..

عدتُ إلى المحطة ترافقني معنويات عالية.. لكن ما أن وصلتُ حتى اهتز محرك سيارة الأجرة الكبيرة، نظر إلي (الكورتني) مبتسما أو ساخرا أو شيئا آخر قد يدور بخلد إنسان بسيط للغاية حتى لامس الجهالة، وقال:

- هذا هو «الرزق» الذي حدثني عنه يا أستاذ.

لم أعره اهتماما، لأنني أعلم أن تفكيره محدود للغاية لا يتجاوز حدود المحطة المتسخة، وهو أشبه بالرمل فحواري لن يكون معه إلا ماء حين ينسكب يضيع ضياعا مجانيا..

جلستُ تحت السقيفة منتظرا سيارة أجرة أخرى تستعدّ لحمل أجساد ذكرية ملفوفة في جلاب صوفية وأجساد أخرى أنثوية مكتنزة لحما مضمومة في لحافات سوداء..

وأنا أتربق الوضع وأفكر في فسيفساء من الأحداث
والصور المبعثرة، انحنيتُ أخذا ورقة جريدة ممزقة بتاريخ
قديم، لحفت الشمس ألوان صورها وخربتُ دهسات الأرجل
الأدمية حروف مقالها، لم يبق إلا العنوان صامدا صادما،
يعلن عن حادثة سير مروعة لسيارة مجنونة في طريقها إلى
بوابة الصحراء.. اشمازتُ نفسياتي وفي لحظة زمنية قصيرة،
سمعتُ (الكورتى) يولول كامرأة تندب حظها العاثر في
فقدانها شخصا عزيزا على القلب..

أدركتُ بعدها بقليل، أنّ سيارة الأجرة رقم 113 هي التي
اصطدمتُ بشاحنة في الاتجاه المعاكس.. كم هزني الخبر
المفجع ! فهي السيارة ذاتها التي كنتُ سأغادر على متنها
إلى بلدة «لخصاص»...

لم تدع الأقدار ومصائر البشر دقائق فؤادي أن تستريح،
فما أن وطأت قدمي أرض القرية حتى هالني تجمع سكان
القرية في قلب ساحة المدرسة، ورجال ذوي بدلات رسمية
بربطات عنق ملونة، وسيارات تحمل حرف جيم أحمر،
ورجال الدرك.. جالتُ بخاطري أسئلة كثيرة أشبه بتلك

التي أقرأ عنها في الجرائد عن التعليم والتربية، تكهنات كثيرة تقاسمت النسب المأوية في صحتها؛ هل سيرمون الحجرات المتأكلة سقفها؟ هل سيشيدون مطعماً للتلاميذ عوض «عشة القصب» التي بناها «العم سعيد»؟ هل سيربطون المدرسة بشبكة الكهرباء ونبدد حلقة الظلام التي شاركتنا ليالينا الطويلة كضيف ثقيل؟ هل سيوزعون على التلاميذ أقلاماً ملونة وأوراقاً بيضاء للرسم عوض كسرات الفحم الحجري التي يخربشون بها على جدران الحجرات الدراسية؟

سربٌ من الأسئلة كطيور النحام صالت وجالت بداخلي، قبل أن يصدمني خبر سقوط سقف الحجرة الدراسية التي يعمل بها صديقي «سعيد»..

حمداً لله، تحسست جيبي.. المفتاح سافر معي..

مرت الأعوام تلو الأخرى تجري غير أبهة بأقدار البشر، والدنيا أمست كظلك إن طلبته تباعد وإن تركته تتابع...



المكاملة

وأخيراً نَسَمَ لي الخَبْرُ اليَقِينُ قادمًا وهبوبَ رياح الجنوب
ممتطيا سحائب التغيير؛ هو خبرٌ انتقالي من مجموعة مدارس
«القاضي عياض» صوب مسقط رأسي بضواحي مدينة
مراكش، بعد عام طويل مفعم بالمشاعر الجياشة والأحداث
الغريبة المتضاربة والجميلة، والأحاديث ذات الشجون المليحة
والليالي الباردة السّاجية...

هكذا غَدَرَ نَهْرُ ذكرياتي، مع توالي السنوات، في تلك
البقعة النضرة من الأرض، ونضُبَ ماؤُه وصرّت أمشي حافي
القدمين على وحله اليابس، أثير نَقَع الحياة الجديدة، فتطّيرت

يَمَامَتُ «إِذْ عَسَيْتُ» وَسَنَمْتُ فِي الْأَعَالِي وَمَا عَادَتْ عَيْنِي
تَرَصُّدَهَا، ذَابَتْ شَمُوعُ صُورِ رِفَاقِي «عَمْرُ» وَ«سَعِيدُ» وَ«عَبْدُ
الْعَزِيزِ» وَسَالَتْ عَلَيَّ شَمْعَدَانِ الصُّحْبَةِ الْجَدِيدَةِ، طَمَسَتْ
السَّنَوَاتُ الْمُتَعَاقِبَةَ أَثَارَ ذَلِكَ الْأَمْسِ الْجَمِيلِ .. قَدْ أَكُونُ قَاسِيَا
عَلَى رَفَقَاءِ دَرَبِي فِي الْعَمَلِ وَعَلَى مَنْ جَمَعْتَنِي بِهِ الْأَقْدَارُ
أَعْنِي «زُرَيْدُ» وَمَنْ مَعَهُ، وَقَدْ تَكُونُ مَشِيئَةُ اللَّهِ أَنْ أُنْسَى كُلَّ
مَا جَرَى وَمَا وَقَعَ، وَقَدْ أَكُونُ مَتَهَاوِنًا حَقًّا وَمَقْصِرًا فِي السُّؤَالِ
عَنْ هَؤُلَاءِ وَتِلْكَ وَذَلِكَ، وَقَدْ تَكُونُ الْأَقْدَارُ قَدْ لَعَبَتْ لَعْبَتَهَا
الْمَعْهُودَةَ .. وَقَدْ ...

أَلْفَتْ الْحَيَاةَ الْمَهْنِيَّةَ الْجَدِيدَةَ، بَعْدَ سِتِّ سَنَوَاتٍ مَضَتْ
كَبْرُقٍ مَا يَنْفَكُ يُولَدُ حَتَّى يَمُوتَ بَيْنَ ذِرَاعِي السَّمَاءِ الْمَلْبُدَةِ
بِالْغَيْومِ. نَعَمْ، اِكْتَسَبْتُ صَدَاقَاتٍ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ بِعَنَاوِينِ
مُخْتَلِفَةٍ، تَعَرَّفْتُ عَلَيَّ تِلَامِذَةً جَدَدٌ وَقَابَلْتُ وَجُوهًا جَدِيدَةً،
بَلَكِنَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ وَعَيُونَ ذَاتِ أَلْوَانٍ مُغَايِرٍ ... تَغْيِيرُ نَمَطِ الْعَيْشِ
وَتَبَدُّلُ مَذَاقِ الْخَبْزِ وَأَشْيَاءٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ ...

ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لِيَالِي آذَارٍ مِنْ سَنَةِ 2005، كُنْتُ فِي مَكْتَبَتِي
الصَّغِيرَةِ فِي الطَّابِقِ الْعُلَوِيِّ تَحْدِيدًا، كُنْتُ غَارِقًا فِي الْمَلْمَةِ أَوْرَاقِ

عملي وتصنيفها ثم تصنيفها وترتيبها؛ وثائق تربوية من كل فن طرف وشظايا أقلام جافة منكسرة وبطاقات مصورة، ورسوم كاريكاتورية منكفئة على وجهها وقصاصات من مجلات تعنى بالتربية والتعليم، ومحاولات شعرية محتشمة ومقالات صحفية انتهت صلاحيتها، وصور فوتوغرافية كنتُ أحتفظ بها في علبة من الورق المقوى أهدتني إياها سائحة إيرلاندية في آخر زيارة لها لمنطقتنا...

وأنا كذلك في غمرة البحث والتفتيش والتنقيب، تارة أطوي ورقة وطورا أمزق صورة.. نَفث في عُرْشِي شيء أشبه بوحى مقبل عليّ من حيث لا أدري، انقبضت أحاسيسي كما تنقبض تيجان زهرة الزنبق في قمة الجبل. لقد أثار انتباهي رقم هاتف ثابت، رجع بي إلى أيام «إد عيسى» وتزنيت وأولى سنوات العمل.. كان هذا الرقم الغريب مغروسا بين أرقام عديدة لأصدقاء وصديقات جمعتنا سنوات الدراسة بمدينة الرياح «الصويرة»، وهذا الرقم بالذات كان مدونا بقلم رصاص بالكاد تظهر ملامحه الحقيقية، كل ذلك كان مختبئا في مذكرة صغيرة مرسوم على إحدى دفتيها أسماك مختلفة الألوان والأشكال.

أه، إنها المذكرة التي طالما فتشت عنها، ليس من أجل أرقام الهواتف التي دونتها بل من أجل تأريخ أحداث مهمة في حياتي أحببتها، إذ كانت تلك هواية من هواياتي التي عشقتها. اليوم، أعثر عليها بعد أن فقدت الأمل في إيجادها. أخذتها برفق من قلب العلبة كحسون جريح بين يدي، ذكرتني ب «زريد» المسكين، كانت أوراقها كالديبال هشة ورثة، ما أن تتصفحها حتى تتفتت كحبات الشوفان حين تشتها يد فلاح على أخاديد الحقل..

لم أتردد ولو ثانية في تركيب الرقم الغريب على صفحة هاتفي الخليوي، كان الرقم يجاوزه اسم «الحاج إبراهيم»، زَمِعْتُ كيف أنني لا أعرفه، استغربتُ كيف أن ذاكرتي بدأت تشيخ بسهولة، فشددني الفضول بلهفة كبيرة إلى معرفته، وأنا أحمل تكهنات عديد في خاطري تدغدغ تفكيري.. وقررت ربط

الاتصال:

- ألو

- ألو.. (كان صوتا أنثويا خجولا)

- أيمكنني التحدث مع «سي إبراهيم» لو سمحتِ؟

- «الحاج»؟ تعيش أنت.. (قالتها وقد زَرَمَ دمعها،
أحسستُ برعشةٍ ينحترق صداها مكبر صوت الموبايل)
- الله أكبر!

- من أنتَ تسأل عنه؟

- مجرد صديق .

- أبعد أربع سنوات، غادرنا فيها الوالد إلى الأبد، تتصل كي
تسأل عنه! على أي، سأناديك زوجي لتقدم له التعازي،
لا يجدر بي أن أسترسل في الحديث معك، فهذا ليس من
شيم أخلاقنا في المدينة...

- مفهوم، لي الشرف أن أدرش معه.

- ألو

- ألو

- من معي؟

- أنا «جلال» أستاذ كنتُ أدرس بقرية «إد عيب...»
(قاطعني بصوت عالٍ مبحوح).

- يا عزيزي الغالي أنا محمد، لا، بل «زريد» اقفل الخط
سأناديك من موبايلي سأحكي لك ما جرى..

سافرتُ في لحظة وجيزة إلى تاريخ مضى وتبخر في
الأجواء، تجرني أيادي تماما كجاذبية خفية لا أدرك مغزاها،
وكانني في كبسولة الزمن أعود إلى الوراء بتفاصيل قديمة
مرفقة بأحاسيس اجتثت من أجداتها حيث كانت راقدة.
رجع بي قطار الذاكرة إلى أيام جميلة كانت كلها نفحات
«تزنيتية»، ووقف بي في محطة اسمها قصة «زريد»، غمرت
نطفات دمع حارقة عيني، شجنتني لوعة فراق هذا الوالد
المسكين، وسجنتني ذكراه في قوقعة ذات قرار مكين.. و
الأسئلة تتقاطر في جوفي وتتناسل علامات الاستفهام في
أغوارِي؛ ترى ماذا وقع؟ ترى كيف صارت معه الأمور؟ هل
جاد القدر بالرخاء وتحققت الآمال؟ أم عصفت رياح اليأس
بأزهار أوركيد الهناء والأحلام؟

عصرتُ الموبايل في يدي، ذاهبا أيبا في فناء الغرفة الصغيرة،
أنتظر الرنة التي ستسكت أنين السؤال بدواخلي، أخفق نعلِي
حيناً وأمصمص شفتي من شدة التوتر حيناً آخر..

فجأة، اهتز الموبايل بين راحة يدي وإبهامي، وبرق ضوءه
الأبيض الناصع.. انقضت على زره الأخضر وكبسته

بخفة الساحر الواثق من نفسه، خانقا أغنية من أغاني
«مجموعة إمديازن»، وذلك قبل أن تشرع في إطلاق سراح
ترنيماتها المسجلة..

- ألو

- ألو «سي جلال» الرائع !

- آه ثم آه من غدر الزمن، رُقشني يا «زريد» وعاتبني فأنا
مستعد لكل شيء..

- بالعكس، يا أعز الناس، لو كنت سجاح وجهي اللحظة،
لضممتك إلى صدري وقبلتُ رأسك، وفرشت لك
الأرض ورودا وأقمت من أجل وليمة تضاهي ولائم
السلطين العثمانيين في زمانهم..

- أكلّ هذا لأنني كنتُ السبب في أن وجدتَ عملا عند
ذاك الشيخ العظيم؟

- آه، تقصد المرحوم «الحاج إبراهيم»..

- نسيْتُ أنه مات رحمة الله عليه، ما سبب وفاته؟

- ماتَ حَتَفَ أَنفِهِ، يوم 12 شتنبر 1999.

- يا لها من صدفة التواريخ؛ 12 شتنبر هو يوم التحافي بالبلدة ...

- صحيح، هي صدفة غريبة. لقد ترك رحيل الحاج شرخا عميقا في نفوسنا جميعا..
- لقد أخبرتني ابنته قبل قليل بهذا الحادث الأليم..
- تقصد «صفية» زوجتي..
- مبروووووك، يا لها من صدفة غريبة وجميلة أيضا صديقي!..
- هي الأرزاق يا «سي جلال»..
- وماذا عن العمل؟ والمحل التجاري؟
- غيرت الأواني البلاستيكية بأجهزة كهربائية، وأصبحتُ مسيرا بعد أن كنتُ الذراع الأيمن لصهري المرحوم «الحاج إبراهيم»، وشغلتُ مساعدين لي، ااااه، أتعرف يا «سي جلال» أنهما ينحدران من ذات القرية «إد عسي» وعاشا نفس تجربتي لكن بتفاصيل مغايرة، قذفتهم أرجل الحرمان وضيق الحال..
- جميل يا «زريد»، عفوا، التاجر «المعلم محمد» هههه
- لا، لا، أنتَ بالذات يحق لك أن تنعتني بهذا اللقب الجميل الذي يذكرني دوما بشخصك العزيز.. سأظل

«زريد» إلى الأبد في ذاكرتك يا صديقي...

- وماذا عن والدك؟ هل زرته؟ هل تسامحت معه؟

- كل طلباتك يا أستاذ مستجابة، إلا هذا الطلب يشق

علي الأمر والله!

- لا أتفق معك يا «محمد» في هذه الجزئية، يجدر بك أن

ترمي وراء ظهرك كل الخلافات التي رسمها الزمن إلى

الأبد في قاع الماضي، أبوك يبقى دائما أبوك، وبالوالدين

إحسانا..

- صدق الله العظيم، لكنه حنشني كحمار منبوذ مسنّ

منتوف الوبر بارزة عظام ساقيه اعتلته جروح الوخز على

العنق وفي الركب.. لا، لا يا عزيزي «جلال» أرجوك لا

أريد حتى مجرد التفكير في الأمر..

- «زريد»، إن كنت تعزني حقا، فاستجب لطلبي..

- أطلب ما تشاء، مالا، أو أجهزة كهربائية أو...

- لا أريد مالا ولا أي شيء، أريدك أن تتسامح مع والدك

قبل فوات الأوان، وإلا لن أعتب باب منزلك أبدا..

رثق صوته وسكت مدة من الزمن خلت أن الخط قد

انقطع، لكن أنفاسه يصلني هديرها صاعدة هابطة، ذكرتني
بصباح ذاك اليوم الذي فتحتُ باب مسكن المعلمين ووجدته
مكلوما منهزما.. لم أشأ أن أبادر بلفظة «ألو» حتى أسمع الرد
النهائي.

بعثة تحرك لسان «زريد» وشرع في غزل صوف الكلام
الجميل:

- طيب يا أستاذ، سأبدد حلقة الكراهية التي سكنتُ
جوفي اتجاه الوالد وأحقق أمنيته التي سقطت عليّ
كالقد..

- أكملها، هي كالقدر، أليس كذلك؟ مادمت تؤمن
بالقدر والأرزاق فهي كذلك.. وإذا كان الخطأ من
الإنسان، فاعلم أن المغفرة من الله.. وعلى رأي «أنديرا
غاندي»: الغفران شيمة الشجعان..

- آه، يا أستاذ! دوما تغلبنى بثقافتك الواسعة، وتقنعني
بما تزخر به الكتب من أحكام وأقوال مأثورة..

- اتفقنا إذن؟

- ليس بعد..

- لماذا؟

- ليس قبل أن تحدد موعد زيارتك لنا في «تزنيت»، وإلا سأتي بك من حيث أنت.

- ولماذا تتعب نفسك يا «زريد» فالسفر عبر الحافلات مقرف وأيضا سيارات الأجرة الكبيرة.. أنسيت؟

- لم أنس يا صديقي «جلال»، الشيء الذي غاب عنك، أنني سأسافر على متن سيارتي السوداء رباعية الدفع!

- يا سلام، «الله يزيد ويبارك» ... كنتَ دوما تلعبُ بمجسم سيارة رباعية الدفع كانت في متحف القسم..

الآن تسوقها على أرض الواقع..

- أرزاقاق !



العودة إلى أرض الحقيقة

في يوم من أيام أيار، قررتُ السفر واللقاء بالصديق
ذي القلب الهيار، لأطفئ نار الشوق النيار. لم أحسبُ
حسابات ضيقة، ولم أشأ الرضوخ لإملاءات جبروت
النسيان المتعجرفة، لم أكنُ في حاجة إلى حافز ينتشلي من
قبضة الكسل، كنتُ على أهبة الاستعداد لتذوق العسل،
عسل قرية «إد عسيي» وذكرياتها الجميلة اللامعة كالزمرد
والمورغنيت .. آه كانتُ كلها في أبهى الحلل .

تكفي مدة الفراق التي طالتُ فاستكبرتُ، تكفي مدة
الهروب من قدر شامخ وصدفات على حقل التاريخ نمتُ

فاستنبتت، يكفي أنني أضعتُ تواريخا مهمة من حياتي وأجلتُ صوراً رائعة من مخيلتي، هكذا خرجتُ من الدار كرصاصة تنفلت من فوهة مسدس لا تنتظر أوامر الزناد، متجها نحو محطة «الطاكسيات الكبيرة» صاحبتُ حقيبتني الجلدية ومعها هواجس ملونة وأفكار مترددة، حيرةٌ تلازمني كعطسات الزكام في فصل الشتاء، وشوقٌ يطاردني كفراشات الرخام في فصل الربيع.. مختلطةٌ أحاسيسي في قاع دواخلي؛ منها الجارفة المستبدة ومنها المسالمة الرحيمة. ركبتُ سيارة الأجرة الكبيرة كالعادة، فلا أحب الحفلات، وإلى «تزنيت» أعود لأحيي ذكرياتي الشبه ميتة.. في طريقي أختلس النظر من نافذة السيارة، أنظر إلى الحقول كيف اخضرتُ وإلى الأرض كيف نجلتُ وكأنها تحكي ذات قصة «زريد». التهمت السيارة الكلومترات جنوبا، حتى تراءت لي تلك المنازل الترابية المزهوة ذات الشرفات البيضاء الشامخة..

لفظتني سيارة الأجرة بعد أن سلبتني قوتي على الحراك، استجمعتها بشق الأنفس، أخذتُ الحقيبة وسرتُ وشارع الحسن الثاني، لجمةً منه تعيد إلي قصة الأمس ولجمة أخرى

تعيد طرح أسئلة الماضي، رصيفه يواسيني كأنني فقدتُ
عزيزا غاليا، الدكاكين المجاورة له اصطفت تذكروني بالذي
مضى كأنه ما مضى.. حارَ بصري كطفل صغير يستمتع
بلعبته الجديدة، تشهقتُ إلى السور الحسني فابتسمتُ شوقه
في وجهي، نظرتُ إلى المسجد الكبير فألقى التحية علي،
مررت بخزانة المختار السوسي الوسائطية، وبمحاذاة قاعة
سينما الباهية، وزرتُ مجمع الصناعة التقليدية.. لقد ناش
قلبي بهذه القطعة الجميلة من أرض الوطن، وأصبح تاريخها
جزءا من تاريخي الشخصي..

اتصلتُ ب«زريد» وركبتُ رقم هاتفه الجديد.. لكن وصلني
جوابٌ ألي:

يتعذر الاتصال ...

أدركتُ أنه خارج التغطية !!!

فكرتُ أن أزور المنزل، أن أفاجئ أهل الدار، إن كانوا
لا يزالون يحتفظون بصورتي في ذاكرتهم.. فقد كنتُ على
بعد أمتار قليلة من الزقاق الذي سرنا فيه ذات يوم أنا و«زريد»

نلاحق «صفية».. الواضح أن ملامح الحي تغيرت كثيراً،
لكنني لازلت أتذكر كل شبر فيه مرسوم شكله في ذاكرتي
رغم مرور السنين.

ها هو المنزل الشامخ المتبختر يناظرني وجها لوجه، لا
فواصل بيني وبينه إلا خطوات قليلة. وقفت كالصنم لا
أحرك ساكنا، أرخيت عضلات الخنصر والبنصر والإبهام
وترك الجاذبية تنال من حقيبتني في غفلة مني.. أغمضتُ
عيني فسافرت في رحلة سحرية إلى تلك الليلة التي لا
تنسى.. لم أستيقظ من وسنتي الخفيفة إلا على صراخ امرأة
شابة تولول، ذكرتني ب «الكورتني»، أنشأتُ تبكي بشدة
رافعة صوتها المنبعث من قلب البهو ذاته الذي قضيتُ فيه
الليلة المعلومة.. شددتُ معصم مراهق كان يجري في اتجاه
الباب، سألته:

- بني، ما سبب هذا الصراخ؟ ولماذا تصطف كل هذه
السيارات قرب منزل «الحاج»؟
- ألا تدري؟ أن «سي محمد» قد فارق الحياة هذا الصباح!
- من يكون هذا الرجل؟

- إنه التاجر المشهور «سي محمد لخصاصي»، هو مالك

محل بيع الأجهزة الإلكترونية..

- الله أكبر، الله أكبر

- أتعرفه يا سيدي؟

- نعم كان صديقا عزيزا أو أكثر من ذلك بكثير، ما سبب

وفاته؟

- لقد تعرض لحادثة سير..

- أين؟

- في الطريق إلى بلدة «لخصاص»، يُقال، والله أعلم، أنه

ذاهب لزيارة والده..

أطلقتُ سراح المراهق، وأطلقتُ العنان أيضا لدموع

حارقة تسيل على خذي كانت حارقة وقاسية، كهذا الظرف

وهذا القدر..

عدتُ إلى المحطة أجزّ خيبة أمل قاسية، مررتُ بـ «كشك»

بائع السمك وأسئلة كثيرة تلاحقني كتعبان جائع:

لولم أكن أستاذا؟

لولم أدرس بقرية «إد عيسى»؟

لو لم يلتق «عبد العزيز» بصهره؟
لو لم أنقذ «زريد» من حادثة الشاحنة؟
لو لم نساfer معا إلى «تزنيت»؟
لو لم نلاحق «صفية»؟
لو كان زريد» يأكل السمك؟
لو لم أجد المذكرة؟
لو لم أتصل؟
لو لم أقدم النصيحة؟

بلدية لخصاص تابعة إداريا لإقليم سيدي إفني

مهزه : دفعه أو أبعدہ

شَرَزَ فلاناً ، وإليه : نَظَرَ إليه بمؤخر عَيْنِهِ

قرية أربعاء أيت عبد الله تبعد عن لخصاص حوالي 15 كيلومترا

إد عيسى قرية نائية تبعد عن أربعاء أيت عبد الله حوالي 6 كيلومترات

عِكْرِشَة: أنشى الأرنب

يقال : ما الذي استنفج غضبَهُ : أَظْهَرَهُ

فراشات الصقلاب هي فراشات كبيرة بطيئة الطيران، وذات أرجل أمامية قصيرة جدا وتتفاوت

ألوانها من البرتقالي إلى البني. وأجنحتها ذات عروق وحواف سوداء ولديها بقع بيضاء.

